The Parables and Similes of the Holy Qur'an and its impacts in the Arabic Literature

with special reference to

Thafseer Al Kasha'f

(Revised copy)

Thesis submitted to the University of Calicut
for the award of the degree of

DOCTOR OF PHILOSOPHY
By

SHAFEEQ REHMAN P

Under the supervision and guidance of

Dr. C.P.ABOOBACKER

Research guide and Former Head,

P.G. Teaching and Research Department of Arabic

FAROOK COLLEGE
(autonomous)

University of Calicut, Kerala, India

www.universityofcalicut.info

2018

الأمثال في القرآن الكريم وتأثيرها بالأدب العربي

بإشارة خاصة إلى

تفسير "الكشاف"

(نسخة منقحة)

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدمها:

شفيق الرحمن . بي

قسم اللغة العربية ، كلية برنّان الحكومية - تلشيري

أشرف عليها

الدكتور سي .بي .أبوبكر

رئيس قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها (سابقا)

كلية فاروق (حكم ذاتي) – كاليكوت

جامعة كاليكوت

كيرالا – الهند

٢٠١٧

DECLARATION

I, SHAFEEQ REHMAN P hereby declare that the material in the Ph.D thesis entitled **"THE PARABLES AND SIMILES OF THE HOLY QUR'AN AND ITS IMPACTS IN THE ARABIC LITERATURE WITH SPECIAL REFERENCE TO THAFSEER AL KASHA'F"** is submitted to the Research Centre, Department of Arabic Farook College, Affiliated to the University of Calicut, Kerala, India, as part of partial fulfilment of the requirements for the award of Degree of Doctor of Philosophy in Arabic. This is an independent work carried out by me at the Department of Arabic, Farook College under the guidance and supervision of Dr. C.P. Aboobacker (Retired Associate Professor), Research Guide, Department of Arabic Farook College, and it has not been submitted for any degree or diploma to other Universities.

Farook College
01/03/2018

Shafeeq Rehman.P
Research scholar

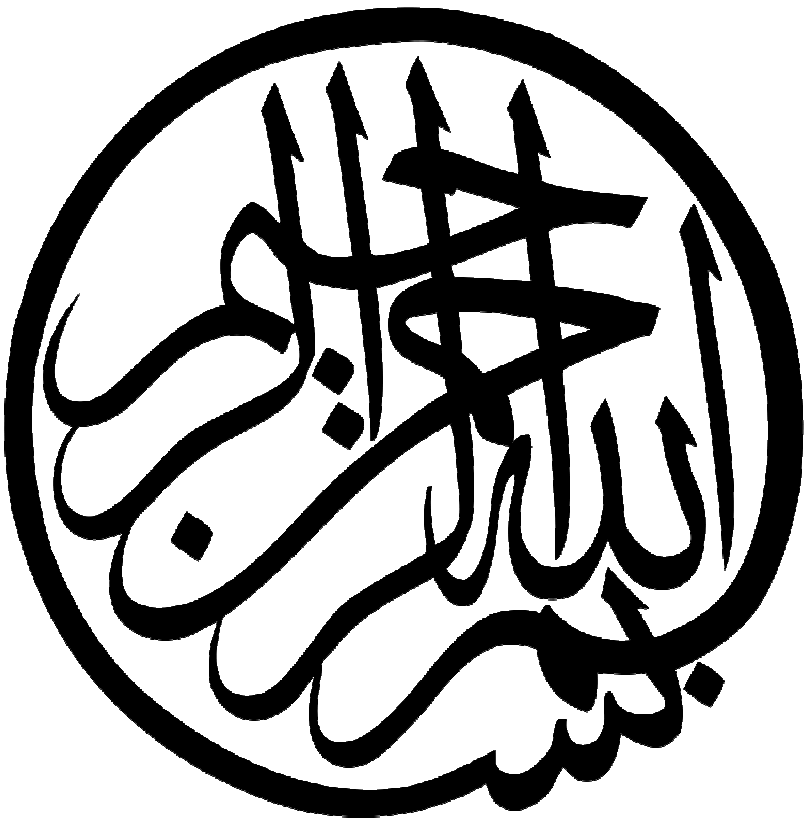
بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة الزّمر)

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، هو الذي أرسل رسوله بالقرآن المجيد ، والبرهان الساطع ، الذي عجز أمامه البلغاء والفصحاء ، وتحداهم القرآن بآياته وألفاظه ، وأساليبه، وخروا أمامه ساقطين ، وحاولوا على أن يأتوا بمثله آية وسورة ، بل عجزوا عنها ، لأنه هو كلام الله المنان ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذه محاولة متواضعة للتعمق في آيات الأمثال بالقرآن الكريم ، والبحث عن جوانبها اللغوية والبلاغية ، وتأثيرها بالأدب العربي ، مع الإشارة الخاصة إلى تفسير " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" المسمى بتفسيرالكشاف للأستاذ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي.

وقد ساعدتني في هذه المهمة الشاقة طائفة من الأساتذة والعلماء ، هم الذين أخذوا بيدي ومشوا بي إلى الأمام في بحثي واجتهادي في كتاب الله العزيز ، وفيهم أشخاص أذكر أسماء هم الآن مع بالغ الشكر والامتنان ، مثل الأستاذ عبد الصمد الباقوي ، والأستاذ ك. ب . محمد عمري ، والمولوي محمد علي ، أطال الله بقاءهم وشفاهم من أمراضهم ، وفيهم من مات وانتقل إلى جوار ربهم ، مثل الأستاذ المولوي ك. ب. عبد الله ، والأستاذ محمد بيتان ، والأستاذ المولوي محي الدين علي الذي قادني إلى عالم اللغة العربية الواسع، رحمهم الله على روحهم الطاهرة واجمعنا بهم في دار جناته الخالدة.

وفوق كل هذا أقدّر وأشكر الأستاذ والمرشد في بحثي هذا الدكتور سي.بي. أبوبكر الذي شجعني ، وسارمعي طول البحث ، من حيث إني لما أظهرت رغبتي أمامه في البحث عن الآيات القرآنية في الأمثال تقبّل منّي رغبتي ووعدني بكل المساعدة

والتشجيع، وهو الذي أغنى بحثي هذا بإشاراته القيمة وإرشاداته الجلية ، أطا الله عمره ووفقه لخدمة اللغة العربية طول حياته .

ومن الذين هداني إلى البحث في الآيات القرآنية هو الأستاذ عبد اللطيف كوزي بارامبان ، الأستاذ المساعد في الكلية الحكومية بكودوالّي، وشاورت معه في ترتيب المواضيع وتبويبها ، وأعانني أيضا بإرشاداته واقتراحاته ، جزاه الله أحسن الجزاء .

وأمدّ يد الشكر والامتنان إلى الأستاذ حسين مدوور ، العميد السابق لكلية روضة العلوم ، فاروق ، هو الذي كشف أمامي عن الكتب الهامة في الموضوع ، وأعطاني نصائح عدة في مادة البحث .

والآن أذكر والديّ اللذين فارقا الدنيا في ربيع حياتهما ،و كانا خير مرشدين في حياتي الدراسية ، وكان في قلبهما آمال وأحلام في تفوّقي ورفعتي ، وأضع الأزهار الدامعة على ذكرهما وأدعو الله للرحمة والمغفرة.

شفيق الرحمن .بي

الأمثال في القرآن الكريم وتأثيرها بالأدب العربي

بإشارة خاصة إلى تفسير

"الكشاف"

هيكل البحث

المحتويات		صفحة
مقدمة	:	١٠-١٦
الباب الأول	: القرآن والأمثال القرآنية: غاياتها وأقسامها وأهميتها	١٨-٥٦
الباب الثاني	: البيان والتفصيل في الأمثال القرآنية التي تتعلق بالإيمان	٥٨-١١٧
الباب الثالث	: تفسير آيات الأمثال في "الكشاف" للزمخشري	١١٩-١٤٣
الباب الرابع	: تأثير الأمثال القرآنية بالشعر العربي والخطابة	١٤٥-١٧٩
الباب الخامس:	دور القرآن الكريم في تطور اللغة العربية وآدابها.	١٨١-٢٢٣

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الباب الأول : القرآن والأمثال القرآنية: غاياتها وأقسامها وأهميتها	**١٨-٥٦**
الفصل الأول :- كلمة " القرآن " لغة واصطلاحا	**١٨-٣٣**
الفصل الثاني : - كلمة"المثل" لغة واصطلاحا	**٣٤-٤٥**
الفصل الثالث : - تقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن	**٤٦-٤٩**
الفصل الرابع : - الأمثال القرآنية وانسجامها مع البيئة	**٥٠-٥١**
الفصل الخامس : - أهمية الأمثال القرآنية في التربية	**٥٢-٥٦**
الباب الثاني :البيان والتفصيل في الأمثال القرآنية التي تتعلق بالإيمان	**٥٨-١١٧**
الفصل الأول :- بيان المثل الذي ورد في القرآن في الحق والباطل	**٥٨-٦٨**
الفصل الثاني : - مثل من أعرض عن كلام الله تعالى	**٦٩-١٠١**
الفصل الثالث : - الأمثال النبوية	**١٠٢-١٠٩**
الفصل الرابع : - التمثيل بالحشرات والحيوانات في القرآن الكريم	**١١٠-١١٤**
الفصل الخامس : - المناظر الطبيعية في التمثيل القرآني	**١١٥-١١٧**
الباب الثالث : - تفسير آيات الأمثال في "الكشاف" للزمخشري	**١١٩-١٤٣**
الفصل الأول :- الزمخشري المفسر البلاغي والأديب -	**١١٩ -١٢٢**
الفصل الثاني : - ميزة تفسير "الكشاف" في بيان آيات الأمثال	**١٢٣-١٣١**

الفصل الثالث : -النواحي التي ركز عليها الزمخشري في تفسير الآيات القرآنية ١٣٢-١٣٥
الفصل الرابع : - منهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الصريحة. ١٣٦-١٣٧
الفصل الخامس : منهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الكامنة ١٣٨-١٤٣

الباب الرابع : تأثير الأمثال القرآنية بالشعر العربي والخطابة ١٤٥-١٧٩

الفصل الأول : - الاقتباسات من القرآن في الشعر العربي القديم ١٤٥-١٥٣
الفصل الثاني : - وجود الألفاظ القرآنية في الشعر العربي ١٥٤-١٥٩
الفصل الثالث : - تأثير أيات القرآن في الأمثال بالشعر الحديث والمعاصر ١٦٠-١٦٤
الفصل الرابع : - الخطابة والأمثال القرآنية ١٦٥-١٦٨
الفصل الخامس: - كتاب "نهج البلاغة " وأسلوبه القرآني ١٦٩ -١٧٩

الباب الخامس: - دور القرآن الكريم في تطور اللغة العربية وآدابها. ١٨١-٢٢٣

الفصل الأول :- علم البلاغة والأمثال القرآنية ١٨١-٢٠٥
الفصل الثاني : -إعجاز القرآن الكريم ومظاهره في آيات الأمثال٢٠٦-٢٠٨
الفصل الثالث : - :التفوق اللغوي للقرآن الكريم ٢٠٩-٢١٥
الفصل الرابع : - صفاء اللغة العربية وصفاء القرآن الكريم ٢١٦-٢٢٣

نتائج البحث ٢٢٤-٢٢٥
الخاتمة ٢٢٦
المصادر والمراجع ٢٢٨-٢٣٣

Shafeeq Rehman, P. “The Parables and Similes of the Holy Qur’an and its impacts in the Arabic literature with special reference toThafseer Al Kasha’f”.Thesis, Department of Arabic, Farook College, University of Calicut, 2018.

مقدمة

القرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه المعجز الذي أبكم البلغاء وتحدى أصحاب الأقلام ، والذي أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم حسب الوقائع والحوادث خلال ثلاث وعشرين سنة قبل أربعة عشر قرنا ، وحفظه الله تعالى من التحريف والتبديل ، كما أشار فيه إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾[1] وهو في أيدينا بحيث نقرأ ونتلو ونفسر ونؤول ونكرمه حق الإكرام نظرا على أنه كتاب مقدس ودستور شامل لحياة الانسان. وهو شريعة الله تعالى الغراء والهدى الذي يهدي الناس إلى الصراط المستقيم ، وهو الذي يفرق بين الحق والباطل ، وهذه منارة من منارات الحق الذي أنزل بلسان عربي مبين ، وقد ملأ الله تعالى كتابه العزيز علوما ومعارف شتى ، وكل من يبحث علمه وحكمه يجده فيه ويطمئن به قلبه ، ويدين به . وفيه حلول شاملة لكل قضية من قضايا الحياة الانسانية لأنه بحر العلوم والفنون ، وله تفاسير عديدة تدل على إعجاز بيانه وعمق علومه ومعارفه.

واللغة المتبعة في القرآن الكريم هي اللغة العربية – هي لغة قريش – التى وصف بها القرآن نفسه بآيته نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾[2] والذين تكلموا بها هم قبيلة قريش بمكة ويسكنون حول الكعبة المشرفة ، وهذه اللغة لها ميزتها بين قبائلها في قوة نطقها ووقعها الموسيقي وبنيتها اللغوية.

ولا ينكر أحد بأن للقرآن تأثيرا بالغا في اللغة العربية وآدابها على أساس الشريعة الإسلامية ، ومن الجوانب التي تأثرت به اللغة العربية الأمثال التي وردت في آياتها وسورها ، ولكل مثل من هذه الأمثال تأثيره البالغ في مختلف جوانب اللغة

[1] سورة الحجر ، الآية :٩
[2] سورة الشعراء ، الآية :١٩٣ - ١٩٥

العربية ، والأمثال القرآنية خير دليل على أن القرآن كتاب معجز فلا يستطيع أحد أن يأتي بكلمة من مثله.

والأمثال منتشرة في القرآن الكريم في سورها ولكل منها غرضه وأهميته ، وبعضها ورد لإثبات توحيد الله تعالى وقدرته وبعضها ذكر دليلا للحياة والبعث بعد الموت وللحياة الأخروية والحساب وغيرها.

أهمية البحث وأسباب اختياره:-

الباحث قد تعود استماع الألفاظ القرآنية خلال كلام العلماء ومحاورتهم ، وأحب أن يتكلم بلغة القرآن الكريم ، وأحب أيضا كلام المرأة المتكلمة بالقرآن الكريم التي عاشت في مصر كانت تتكلم بسذاجة فائقة ، والباحث قد أحب حبا التصاوير خلف آيات الأمثال القرآنية ، وكذلك أظهر رغبته على المرشد لأن يكون باحثا في أمثال القرآن الكريم.

تحليل عنوان البحث

إن هذا البحث بعنوان " **THE PARABLES AND SIMILES OF THE HOLY QUR'AN AND ITS IMPACTS IN THE ARABIC LITERATURE WITH SPECIAL REFERENCE TO THAFSEER AL KASHA'F** معتمد من قبل جامعة كاليكوت برقم التسجيل رقم :CDC/B3/870/Ph.D2009 Other Centers(8) ومقابله العربي ""الأ مثال في القرآن الكريم وتأثيرها بالأدب العربي بإشارة خاصة إلى تفسير "الكشاف"

والقصد في هذا البحث هو دراسة الأمثال القرآنية أدبيا من حيث جمالها الفني ، وجمالها التصويري التي تتأكد على إعجاز القرآن الكريم، ودراسة مستوعبة عن تفسير " الكشاف" للزمخشري،ويرى الباحث أنّ هذا التفسير يتميّز من سائر التفاسير في بحثها اللغوي لآيات الأمثال، وفوق كلّ هذا أنّ بقاء اللغة العربية في صفائها ونقائها يعتمد على بقاء القر آن الكريم.

أغراض البحث : -

١ – البحث عن كلمة "القرآن" تعريفه وطبيعته ومعانيه والآراء التي تتعلق به.

٢ - دراسة تفصيلية عن الأمثال التي وردت في القرآن الكريم تتعلق بالإيمان

٣ – البحث في علم البلاغة والأمثال في القرآن الكريم

٤ – دراسة تحليلية في تأثير القرآن الكريم بالشعر العربي والخطابة

٥ – البحث عن المنهج الذي اتخذه الزمخشري صاحب تفسير الكشاف في بيان آيات الأمثال

٦ – إلقاء الضوء على دور القرآن الكريم في تطور اللغة العربية وآدابها.

والبحث يتجه إلى أن هذه الأمثال تلقي الضوء على المجالات المتشعبة في القرآن وتؤكد توحيد الله سبحانه وتعالى وصفاته وتقرر الرسالة المحمدية .

وترى في القرآن أيضا عدة أساليب لبحث الأشياء والحقائق مثل التصريحات الصحيحة والكامنة ، والكنايات والإيجاز والإطناب ولكل منه تأثيره ومغزاه في هذه الأمثال . وقد استعمل القرآن أسلوب التمثيل كأطيب طريق ووسيلة فعالة لبيان الأشياء . ومهدت هذه الطريقة لنشأة علم البلاغة بفروعها المختلفة.

ولهذه الأمثال أيضا أهميتها في الشعر العربي خصوصا في الأعمال الحرة لبعض الشعراء، وكذلك لها أهميتها في الخطابة ، والخطباء في العصر الاسلامي كانوا يستعملون أمثال القرآن الكريم في خطاباتهم وكتاباتهم .

والقرآن الكريم ميزته الوحيد هو كلام الله تعالى ، ولذا عجز البلغاء و الأدباء أمام الأدب القرآني عن أن يأتوا بمثله سورة أو آية.

والبحث يهدف إلى أن يقرر حقيقة " إن بقاء اللغة العربية كماهي يعتمد على بقاء القرآن الكريم" .

منهجية البحث : اتبع الباحث في بحثه طريقة المنهج التحليلي الوصفي.

- اطلع الباحث على أمهات كتب التفسير مثل تفسير ابن كثير ، وفي ظلال القرآن ، والقرطبي ، والشعراوي وما إلى ذلك.
- أجري الباحث مقابلات شخصية مع العلماء البارزين في داخل الهند وخار جها عبر الإنترنيت.
- استمع الباحث إلى مكالمات في "يوتوب" واستفاد منها بكثرة.
- اطلع على المؤلفات الهامة في الأمثال للعلماء البارزين مثل أبي جعفر السبحاني ، وابن القيم الجوزية و شريف منصوربن عون العبدلي وسميح عاطف زين ومثلهم.
- القراءة والتحليل بكتاب الكشاف للزمخشري.

الدراسات السابقة في مجال البحث: -

وقد وردت دراسات كثيرة في أمثال القرآن الكريم ، بل معظم هذه الدراسات ترتكز على الجانب العقدي ، بل قد وردت بض نبذات يسيرة في دراسة أمثال القرآن الكريم دراسة أدبية، ولكن تأتي هذه الدراسات في الجوانب البلاغية فقط.

ومن الذين حاولوا في هذا الميدان :-

١) ابن القيم الجوزية – الأمثال في القرآن الكريم _ دار المعرفة – بيروت (١٩٨١)

٢) الدكتور الشريف منصور بن عون العبدلي - الأمثال في القرآن الكريم - دار المعرفة – بيروت (١٩٨٠)٠

٣) الشيخ جعفر السبحاني : الأمثال في القرآن الكريم – جعفر السبحاني _ دار الشروق المصري (١٨٨٦)

٤) محمد عبد الرحيم _ الأمثال في القرآن الكريم - دار الفكر- بيروت (٢٠٠)

٥) أبوعبد الله محمد بن علي بن حسن -"الأمثال من الكتاب والسنة"

٦) ابراهيم بن محمد بن نفطويه - "أمثال القرآن"

٧) الحسن بن الفضل - "الأمثال الكامنة في القرآن"

وهناك معجم لأمثال القرآن الكريم باسم "معجم الأمثال في القرآن الكريم " لسميح عاطف الزين ، وهو الذي رتبها ألفبائيا.

مشكلة البحث:-

يرى الباحث أن الدراسات حول الأمثال القرآنية صعبة وشاقة من عدة أوجه:

- الكتب المؤلفة في الأمثال القرآنية كثيرة مع أنّ معظمها لا تمس إلا الجوانب التعليمية والعقدية.
- النظرة الأدبية إلى الأمثال القرآنية من حيث تأثيرها في فنون الأدب صعب جدا ، لأنّ الكتب المؤلفة في هذا المجال نادرة جدا، وهذه الكتب نفسها لايعالج الموضوع مباشرا.
- الأمثال القرآنية عددها لايحصى تماما بكل أنواعها ، حيث إنّ العلماء قد اختلفوا في عددها من جانب الموضوع والمعاني ، وفي جانب تقسيمها وتنويعها.بل حاول العلماء مثل ابن القيم الجوزية لإحصائها.

الباب الرابع : تأثير الأمثال القرآنية بالشعر العربي والخطابة ، ويحتوي هذا الباب على عناوين: - الاقتباسات من القرآن في الشعر العربي القديم ووجود الألفاظ القرآنية في الشعر العربي وتأثير أيات القرآن في الأمثال بالشعر الحديث والمعاصر والخطابة والأمثال القرآنية و كتاب "نهج البلاغة " وأسلوبه القرآني

الباب الخامس: - دور القرآن الكريم في تطور اللغة العربية وآدابها. ويحتوي هذا الباب على عناوين: علم البلاغة والأمثال القرآنية وإعجاز القرآن الكريم ومظاهره في آيات الأمثال والتفوق اللغوي للقرآن الكريم وصفاء اللغة العربية وصفاء القرآن الكريم.

- الآداب العربية بكل أنواعها قد تطوّرت بعد نزول القرآن الكريم ، والكلمات القرآنية منتشرة في كل منها بكثرة ، فلذا يصعب تقسيمها الى أبواب وفصول خاصة.

تبويب البحث

وقد قسم هذا البحث إلى مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة كما يتلخص على النحو التالي:

المقدمة: تحتوي المقدمة على أهمية البحث وأسباب اختيار البحث والدراسات السابقة في مجال البحث وأغراض البحث وأهدافها

الباب الأول: هو: القرآن والأمثال القرآنية: غاياتها وأقسامها وأهميتها: ويحتوي هذا الباب على عناوين: :- كلمة " القرآن " لغة واصطلاحا و"المثل" لغة واصطلاحا وتقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن والأمثال القرآنية وانسجامها مع البيئة وأهمية الأمثال القرآنية في التربية

الباب الثاني : - البيان والتفصيل في الأمثال القرآنية التى تتعلق بالإيمان ويحتوي هذا الباب على عناوين : - بيان المثل الذي ورد في القرآن في الحق والباطل و مثل من "أعرض عن كلام الله تعالى" و الأمثال النبوية و التمثيل بالحشرات والحيوانات في القرآن الكريم والمناظر الطبيعية في التمثيل القرآني

الباب الثالث : - تفسير آيات الأمثال في "الكشاف" للزمخشري، ويحتوي هذا الباب على عناوين: - الزمخشري المفسر البلاغي والأديب وميزة تفسير "الكشاف" في بيان آيات الأمثال و النواحي التي ركز عليها الزمخشري في تفسير الآيات القرآنية ومنهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الصريحة ومنهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الكامنة

Shafeeq Rehman, P. “The Parables and Similes of the Holy Qur’an and its impacts in the Arabic literature with special reference toThafseer Al Kasha’f”.Thesis, Department of Arabic, Farook College, University of Calicut, 2018.

الباب الأول

القرآن والأمثال القرآنية: غاياتها وأقسامها وأهميتها

الفصل الأول :- كلمة " القرآن " لغة واصطلاحا

الفصل الثاني : - كلمة "المثل" لغة واصطلاحا

الفصل الثالث : - تقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن

الفصل الرابع : - الأمثال القرآنية وانسجامها مع البيئة

الفصل الخامس : - أهمية الأمثال القرآنية في التربية

الفصل الأول

كلمة "القرآن" لغة واصطلاحا

لفظ "القرآن" مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ [1] ، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسما للكلام المعجزالمنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، من اطلاق المصدر على مفعوله.

وهناك رأي آخر بأنه وصف من القرء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء ، أوأنه مرتجل ، أي من أول الأمر علما على الكلام االمعجز المنزل.

ويقال للقرآن فرقانا أيضا، وأصله مصدر كذلك، ثم سمي به النظم الكريم، تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق بعضه عن بعض في النزول ، أو في الصور و الآيات . قال تعالى: تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ [2].

إنّ هذين الاسمين هما أشهر أسماء النظم الكريم. بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه.

---

[1] سورة القيامة : ١٧ ، ١٨

[2] سورة الفرقان : ١

ويلي هذين الاسمين في الشهرة هذه الأسماء الثلاثة: "الكتاب" و "الذكر" و"التنزيل". وتجاوز صاحب البرهان[1] حدود التسمية ، فبلغ بعدتها خمسة وخمسين ، وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ نيفا وتسعين، كما ذكره صاحب التبيان[2].

يقول صاحب "الكشاف"[3] جار الله الزمخشري في تفسير كلمة "القرآن" : والقرآن في اللغة مصدر بمعنى الجمع، يقال قرأت الشيء قرآنا : أي جمعته وبمعنى القراءة يقال : قرأت الكتاب قراءة وقرآنا، ثم نقل الى هذا المجموع المقروء المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المنقول عنه بالتواتر فيما بين الدفتين وهو المراد ههنا.

القرآن في الاصطلاح : -

هو كلام الله المنزل على النبي المعجز بسورة منه المتعبد بتلاوته المنقول الينا تواترا بين دفتي المصحف .

أما تعريف القرآن اصطلاحا فقد تعددت آراء العلماء فيه و ذلك بسبب تعدد الزوايا التي ينظر العلماء منها الى القرآن .

ومن بعض تعاريفه :

١- القرآن هو كلام الله المنزل على سيدنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته المعجز ولوبسورة منه [4].

٢- هو كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه والمنقول الينا بالتواتر[5].

---

[1] بدر الدين الزركشي :البرهان في علوم القرآن ، ط ١ ، دار المعارف – بيروت ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧ م ، ص: ٢٨
[2] الشيخ محمد علي الصابوني : التبيان في علوم القرآن ، مكتبة إشاعت الاسلام – دهلي ، ١٩٨٥م ، ص: ١٠، ١١ ، ١٢
[3] الزمخشري : الكشاف ، الجزء الأول ، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، ص : ٤
[4] التبيان في علوم القرآن ، ص : ١١
[5] البرهان في علوم القرآن ، ص : ٣٠

٣- المعجز أو المتحدى بأقصر سورة منه أو المتعبد بتلاوته أو المكتوب بين دفتي المصحف أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس[١].

ان المتكلمين يطلقونه الكلام النفسي وفيه يلاحظون أمرين : أحدهما : ان القرآن علم أي كلام ممتاز عن كل ماعداه من الكلام الألهي[٢].

وهناك اطلاق آخر هو "اللفظ المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من أول الفاتحة الى آخر سورة الناس [٣]".

ويطلق القرآن أيضا على النقوش المرموقة بين دفتي المصحف ، باعتبار ان النقوش دالة على الصفة القديمة ، و الكلمات الغيبية ، واللفظ المنزل .

فمن الذين عرفوا القرآن من أطال في التعريف وأطنب ، بذكر جميع خصائص القرآن الممتازة . ومنهم من اختصر فيه وأوجز.ومنهم من اقتصد وتوسط . فالذين أطنبوا عرفوه "بأنه الكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته" وأنت تعرف ان هذا التعريف جمع بين الاعجاز، والتنزيل على النبي صلى الله عليه وسلم، والكتابة في المصاحف ، والنقل بالتواتر ، والتعبد بالتلاوة. وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم .

والذين اختصروا وأوجزوا في التعريف : منهم من اقتصر على ذكر وصف واحد هو الاعجاز. ووجهة نظرهم في هذا الاقتصار هو الوصف الذاتي للقرآن، وأنه الآية الكبرى على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، والشاهد العادل على ان القرآن كلام الله.

---

[١] مناع القطان : مباحث في علوم القرآن ، مكتبت اشاعت اسلام – دهلي ، ١٤١٣ه/١٩٩٢م ، ص : ١٥
[٢] عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان
[٣] مناهل العرفان : ص : ٤٢

ومنهم من اقتصر على وصفين : هما الإنزال والإعجاز ، وحجتهم ان ما عدا هذين الوصفين ليس من الصفات اللازمة للقرآن . بدليل ان القرآن قد تحقق فعلا بهما دون سواهما على عهد النبوة . ومنهم من اقتصر على وصفي النقل في المصاحف والتواتر، لأنهما يكفيان في تحصيل الغرض وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ما عداه.

ومن الذين توسطوا : من عرض لإنزال الألفاظ ، وللكتابة في المصاحف وللنقل بالتواتر فحسب ، موجها رأيه بأن المقصود هو تعريف القرآن لمن لم يدركه زمن النبوة، وان ما ذكره من الأوصاف هو من اللوازم البينة لأولئك الذين لم يدركوها ، بخلاف الإعجاز فانه غير بين بالنسبة لهم ، وليس وصفا لازما لما كان أقل من سورة القرآن.

ومن أولئك الذين توسطوا من عرض للإنزال والنقل بالتواتر والتعبد بالتلاوة فقط، مستندا الى ان ذلك هو الذي يناسب غرض الأصوليين . وعرفوه بأنه :"اللفظ المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته [1]".

يقول الشيخ مناع القطان في كتابه "التبيان في علوم القرآن"[2] : "قرأ" تأتي بمعنى الجمع والضم ، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض في الترتيل ، والقرآن في الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآنا . قال تعالى : إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾[3] أي قراءته ، فهو مصدر على وزن "فعلان" بالضم . كالغفران والشكران ، تقول قرأته قراءة وقرآنا، بمعنى واحد سمي به المقروء، تسمية للمفعول بالمصدر.

---

[1] مناهل العرفان ،ص : ٣٠
[2] التبيان في علوم القرآن ، ص : ٣٨
[3] سورة القيامة ، الآية :١٨

ويطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن وعلى كل آية من آياته ، فاذاسمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول أنه يقرأ القرآن : واذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا.

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم. كما أ شار تعالى الى ذلك بقوله "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ "[1] وقوله : "مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ "[2].

وذهب بعض العلماء إلى ان لفظ القرآن غير مهموز الأصل في الاشتقاق ، اما لأنه وضع علما مرتجلا على الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وليس مشتقا من "قرأ " واما لأنه من قرن الشيء بالشيء اذا ضمه اليه، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضا فالنون أصلية.

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا ، والحد الحقيقي له هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن تشير اليه مكتوبا في المصحف أو مقروءا باللسان . فتقول : هو بين هاتين الدفتين أو تقول هو من (بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين.....) الى قوله (من الجنة والناس).

ويذكر العلماء تعريفا له يقرب معناه ويميزه عن غيره، فيعرفونه بأنه "كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته "[3]. فالكلام جنس في

[1] سورة النحل : الآية ٨٩
[2] سورة الأنعام : الآية ٣٨
[3] مناهل العرفان : ص : ٣١

التعريف، يشمل كل كلام ، و إضافته الى الله يخرج كلام غيره من الانس والجن والملائكة و"المنزل" يخرج كلام الله الذي استأثربه سبحانه:

قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا [1].

وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ [2]

وتقييد المنزل بكونه على محمد صلى الله عليه وسلم يخرج ماأنزل على الأنبياء قبله، كالتوراة والانجيل وغيرهما.

أسماء القرآن وأوصافه: -

وقد سماه الله بأسماء كثيرة:

منها "الكتاب" لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ [3]

و "الفرقان" تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا [4]

و"القرآن" إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ

[1] سورة الكهف : الآية : ١٠٩
[2] سورة لقمان : الآية : ٢٧
[3] سورة الأنبياء : الآية : ١٠
[4] سورة الفرقان : الآية : ١

و "الذكر " إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ[1]

و"التنزيل" وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ[2]

وقد غلب من أسمائه "القرآن" و "الكتاب" . قال الدكتور محمد عبد الله دراز: " روعي في تسميته "قرآنا" كونه متلوا بالألسن كما روعي في تسميته "كتابا" كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه[4].

وفي تسميته بهذين الاسمين اشارة الى ان من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا، ان تضل احداهما فتذكر احداهماالأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجتمع عليه من الاصحاب ، المنقول الينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ، إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول : " إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ "[5] ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند".

وبين سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد ، وان هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدا عليها بماشاء الله زيادته ، وكان سائرا مسيرها ،

---

[1] سورة الاسراء : الآية :٩
[2] سورة الحجر : الآية :٩
[3] سورة الشعراء : الآية :١٩٢
[4] محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم – دار الكتب - مصر
[5] سورة الحجر : الآية :٩

ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضى الله ان يبقى حجة الى قيام الساعة ، واذاقضى الله أمرا يسرله أسبابه – وهو الحكيم العليم.

ووصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك :

منها "نور" يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ [1]

و"هدى" و" شفاء" و "رحمة" و "موعظة" يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ [2]

و"مبارك" وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ [3]

و"مبين" قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ [4]

و "بشرى" مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ [5]

و"عزيز" إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ [6]

---

[1] سورة النساء : الآية : ١٧٤

[3] سورة يونس ، الآية :٥٧
[4] سورة الأنعام : الآية : ٩٢
[5] سورة المائدة : الآية : ١٥
[6] سورة البقرة : الآية : ٩٧
[7] سورة فصلت : الآية : ٤١

و"مجيد" بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾[1]

و"بشير" و"نذير" كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ، بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ [2]

وقد اختلف أهل العلم أيضا في التعريف بالقرآن الكريم من عدة جهات:

أولا من جهة كونه مهموزا : الحياني والجوهري والراغب الاصفهاني وابن الأثير يرون بأنه مهموز[3] .

ثانيا من جهة كونه مصدرا : من قرأ قرأت قرآنا سمي به المقروء من باب تسمية اسم المفعول – كما ورد في سورة الاسراء "أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا "[4].

ثالثا من جهة كونه مصدرا كما ورد فى الآيات السابقة المذكورة أعلاه

التعريف العقدي والشرعي للقرآن الكريم :-

نظر علماء الاسلام الى القرآن من جهتين اثنيتين:- الأولى عقدية حيث نظروا الى القرآن من جهة كونه كلام الله تعالى الصادر منه .

فقال أهل السنة والجماعة: " هو كلام الله تعالى على الحقيقة ، لا التأويل والمجاز"[5].

---

[1] سورة البروج : الآية : ٢١
[2] سورة فصلت : ألايات : ٣ ، ٤
[3] مناهل العرفان : ص: ٤٥
[4] سورة الاسراء : الآية : ٧٨
[5] أبو جعفر الطحاوي : العقيدة الطحاوية

فهو على خلاف مذهب المعتزلة غير مخلوق.

وعلى خلاف مذهب الأشاعرة " ليس كلاما نفسيا فقط بل صفة ذات وفعل مقدسة وان الصوت واللفظ والتغني انما هو للقارئ وان الكلام المقروء المتلو هو للبارئ"[1].

وأما الثانية فنظر العلماء اليه من جهة كونه مصدرا للشريعة الاسلامية وحافظا لأسمى كلام العرب وأرقى تراكيبهم وفنونهم.

بعض المعرفين له انتقدوا القواعد والضوابط المنطقية وقا لوا انها غير قادرة على تعريف القرآن. أو انها تزيده غموضا وتشويشا أو ان تعريف القرآن في غير حاجة اليها.

ومنهم من توسع في تعريف القرآن بتعداد أوصافه وخصائصه كالإنزال، والكتابة في المصاحف ، والنقل بالتواتر والاعجاز، أوالمتعبد بتلاوته، أوالحفظ في الصدور. واقتصر بعضهم على صفتي الانزال على النبي صلى الله عليه وسلم والاعجاز لتحقيق القرآن بهما ودون سواها في زمن النبوة وترك بعضهم ذكر صفة الاعجاز معللا ذلك بأنه خاصية لايعلمها الا خواص العارفين بأسرار العربية وأساليبها ويكون غيرشامل لكل أجزاء القرآن

وبعض العلماء صرفوا عن تعريفه ، لأن القرآن في نظرهم علم شخصي والتعريفات انما تكون للكليات ، ومنهم من نظر الى أن القرآن أعرف من أن يعرف وهو متميز غير مجهول فلا حاجة اذن للتعريف.

والقرآن هو فوق ماقدره العلماء والبلغاء ، في آياته وسوره وألفاظه ، والله تعالى هو الذي وضع نظم آياته وسوره ، وأرشد هذا وألهمه الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، والرسول هو الذي أتى به معجزة من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو الذي فسّر آياته وألفاظه بسنته وحياته ، والعلماء لو اجتهدوا في تعريفه ما بلغوا الى نهاية مذكورة ،

[1] العقيدة الطحاوية : ص٧٥

كل نظر اليه حسب رؤيته الدينية والعقدية ، ووجهته تختلف عن وجهة نظر الآخرين ، لأن لكل منهم رأي خاص في آيته وفي تفسير آياته ، وعلى هذا نحن لا نستطيع أن نعرّف القرآن تعريفا كافيا جامعا مانعا ، بل نبدي آراءنا فيه والله هو أعلم به ونتوكل عليه.

الأهداف من نزول القرآن الكريم

القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي الا رسوخا في الإعجاز ، أنزله الله على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويهديهم الى الصراط المستقيم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته فيفهمونه بسليقتهم ، واذا التبس عليهم منهم آية من الآيات سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها.

من فضل الله تعالى على الإنسان أنه لم يترك في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه فطرة سليمة ، تقوده الى الخير ، وترشده الى البر فحسب ، بل بعث اليه بين فترة وأخرى رسولا يحمل من الله كتابا يدعوه الى عبادة الله وحده ، ويبشر وينذر ، لتقوم عليه الحجة . رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[1]

وظلت الإنسانية - في تطورها الفكري – الوحي يعاودها بماياناسبها ويحل مشاكلها الوقتية في نطاق قوم كل رسول ، حتى اكتمل نضجها ، وأراد الله لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن تشرق على الوجود ، فبعثه على فترة من الرسل تصل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة ، وكتابه المنزل عليه ، وهو القرآن الكريم .... "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله

[1] سورة النساء : الآية : ١٦٥

الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون منه ، ويقولون لولاهذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " (متفق عليه)[1].

فالقرآن رسا لة الله الى الإنسانية كافة ، وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك في الكتاب والسنة. "قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "[2]

"وكان كل نبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى أناس كافة"[3].

ولن يأتي بعده رسالة أخرى ، "مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا "[4]

فلا غرو من أن يأتي القرآن وافيا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية : "شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ

[1] رواه البخاري ومسلم
[2] سورة الأعراف : الآية :١٥٨
[3] رياض الصالحين: الحديث رقم :٦٧٤
[4] سورة الأحزاب : الآية : ٤٠

وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ "[1].

الغاية العظمى من نزول القرآن الكريم :-

قال تعالى :" كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾"[2]

وهناك آراء في تفسير هذه الآية من غاية نزول القرآن الكريم ويقول الطبري : ليدبروا حجج الله التي فيه ، وما شرع فيه من شرائعه فيتعظوا ويعملوا به [3].

ويقول السعدي : هذه الحكمة من إنزاله ، ليدبر الناس آياته ، فيستخرجوا علمها و يتأملوا أسرارها وحكمها فانه بالتدبير فيه والتأمل لمعانيه ، واعادة الفكر فيها مرة بعد مرة ، تدرك بركته وخيره ، وهذا يدل على تدبر القرآن ، وأنه من أفضل الأعمال ، وان القراءة المشتملة على المتدبر أفضل من سرعة التلاوة التي بها هذا المقصود.

حقيقة أهداف نزول القرآن الكريم : -

يجب على كل واحد أن يقف على الحقائق التي جاءت وراء أهداف القرآن الكريم ، ويصل الانسان بمعرفتها الى الغايات الكبرى من خلقه ، والفهم بلا غاية ومقصد فهم بلا روح فلا بد من معرفة أهداف نزول القرآن وحقائقها .

---

[1] سورة الشورى : الآية : ١٣
[2] سورة الصاد: الآية: ٢٩
[3] ابن جرير الطبري : تفسير الطبري

ومن القرآن الخطاب الوارد على المكلفين تفهيم ما لهم وما عليهم مما هو مصلحة في دنياهم وأخراهم ، وهذا بين واضح لا جمال فيه ولا اشتباه. فلا بد للمكلف أن يعرف من حقائق الأهداف ثلاثة أمور:-

١ - الهدف الذي يدل من الخطاب الشرعي .

٢ - إرادة التكليف.

٣ - الهدف الشرعي من الحكم .

وهناك نوعان من مقاصد القرآن الكريم ، وهما المقاصد العامة ويتمثل فيها إصلاح الفرد والجماعة . والمقاصد الخاصة وتشتمل على الاعتقاد ، وتطهير الاعتقاد لازم لتطهير النفس ، وكذلك تهذيب الأخلاق ، وقال الله تعالى مشيرا الى خلق الرسول صلى الله عليه وسلم : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ [١]

وتشتمل المقاصد الخاصة أيضا على معرفة التشريع وهو معرفة الأحكام وكيفية تطبيقها كما قال تعالى : إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا [٢] ومن الأهداف الخاصة من نزول القرآن الكريم سياسة الأمة ، ومرادها صلاح الأمة وحفظ نظامها من خلال الاعتصام بحبل الله تعالى حيث قال: وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ

[١] سورة القلم : الآية : ٤
[٢] سورة النساء : الآية : ١٠٥

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[1]

وسرد القصص وأخبار الأمم السالفة من الأهداف الخاصة للقرآن الكريم ويقول تعالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ[2] ، التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم الى تلقي الشريعة ونشرها وهذا أيضا من الأهداف العظيمة للقرآن الكريم.

أسلوب القرآن الكريم:-

نزل القرآن الكريم في نحو ثلاث وعشرين سنة على ما يعرض من حوادث ، ومنها :ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة ، نزل في خلالها ثلاث وتسعون سورة ، وعشرة بالمدينة المنورة بعد الهجرة ، نزل فيها إحدى وعشرون .

وهذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحادث ، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه السورة ، وكان الصحابة الكرام يحفظون أويكتبون ما ينزل كلا على حدة، فلم يكن القرآن الكريم إذن خاضعا لقانون من وحدة الموضوع ، ووحدة الأسلوب ، وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض ، وانماتجمع على هذه الصور، ودوّن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تبعا لماكان يجده الكاتبون أوّلا فأوّلا محفوظا في الصدور أومسطورا في الصحف ، ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب

[1] سورة آل عمران : الآية : ١٠٣
[2] سورة يوسف : الآية :٣

تنزيله ، و لا على حسب موضوعه ، فتكررت القصص بتأكيد الإنذار أولتشابهالأسباب ، وتشتت وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرّقا في مكانين مختلفين ، وأزمان متراخية ، وأغراض متجددة ، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل .[1]

[1] محمد عبد الرحيم : الأمثال في القرآن الكريم

الفصل الثاني

كلمة " المثل " لغة و اصطلاحا

المثل عند العرب : -

الحكم والأمثال نوع هام من أنواع الأدب العربي ، والأمثال كانت متعلقة بحياة أمة العرب أكثر من أي أمة أخرى، وانهم كانوا يستعملون هذا الأسلوب من الكلام لأداء مافي نفوسهم الى السامعين أو المخاطبين بطريقة بسيطة سهلة.

"المثل حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وضرب من ضروب بديعها ، وجوامع كلمها ، به تستمال القلوب النافرة وتستصرف الأبصار الطامحة ، وترد الأهواء الشاردة ، وبمثله يتيسر النجح ويسهل العصير ويقرب البعيد ، ويذلل الصعب ، ويدرك المنيع ،ويصاب الممتنع ، ولشدة اعتنائهم به واهتمامهم بشأنه أودعه الخطيب المصقع في خطبه ، وأدرجه الشاعر المفلق في قصائده وما ذاك الا لروعة بيانه واشتماله على أساليب الحسن والجمال ، واستيلائه في الجودة على أمد الكمال " ومن أجل ذلك سارع العرب الى تدوين الأمثال منذ أواسط القرن الأول الهجري ، اذ ألف فيه صحارى العبدي أحد النسابين أيام معاوية بن أبي سفيان كتابا ، ثم لا زال التأليف حتى نشأ عن ذلك المصنفات الجليلة المقدار العظيمة الشأن ، منها كتاب "مجمع الأمثال " للميداني الذي خصص فصلا للأمثال الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ، ومنها كتاب " المستقصي" للزمخشري . والكتب في هذا الميدان غير محصورة العدد ولذلك ذكرها أمر شاق في كل موقع.

قال الزمخشري وغيره من علماء التفسير واللغة : أصل المثل في كلام العرب بمعنى المثل وهو النظير يقال مثل ،ومثل ، ومثيل ، كشبه وشبه وشبيه.[1] يقول أحمد

[1] الكشاف : ص :٧٢

حسن الزيات : " المثل جملة متقطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عمن وردت فيه الى مشابهه بدون تغيير"[1] وقال الراغب في المفردات :

أصل المثول : الانتصاب ، والممثل : المصور على مثال غيره ، يقال مثل الشيء : أي انتصب [2]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : "من أحب أن يمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار "[3] و التمثال :الشيء المصور ، وتمثل كذا : تصور ، قال تعالى :" فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا " [4]

يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام :

١ – إيجاز اللفظ ٢ – إصابة المعنى ٣ – حسن التشبيه ٤ – جودة الكفاية ، فهو نهاية البلاغة. (إبراهيم النظام)

"قال أبو السعود : ان التمثيل ليس الا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور ، وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس ، لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضيته للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية ، وفهم الدقائق الأبية كي يتابعه فيما يقتضيه ويسيغه الى مالا يرتضيه ، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية والكلمات النبوية ، وذاعت عبارات البلغاء ، وإشارات الحكماء"[5] (الأمثال في القرآن الكريم – دراسة مبسطة حول الأمثال الواردة في الكتاب العزيز – جعفر السبحاني)

الأمثال القرآنية :-

دلت غير قليل من الآيات القرآنية على أن القرآن مشتمل على الأمثال ، وأنه سبحانه صرحها مثلا للناس للتفكير والعبرة ، قال سبحانه : لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا

[1] أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي –ط :٢٤ دار نهضة مصر للطبع والنشر – مصر - ٢٠٠٠، ص : ١٨
[2] الراغب الإصفهاني - المفردات في غريب القرآن – دار القلم – دمشق -٢٠١٠م
[3] أخرجه البخاري في " الأدب " (٩٧٧) و أبو داود (٥٢٢٩) و الترمذي (٢ / ١٢٥)و الطحاوي في " مشكل الآثار " (٢ / ٤٠) و اللفظ له و أحمد (٤ / ٩٣ ، ١٠٠)
[4] سورة مريم : الآية : ١٧
[5] الشيخ جعفر السبحاني : دراسة مبسطة حول الأمثال الواردة في الكتاب العزيز

ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾[1]

الى غير ذلك من الآيات التي تدل على وجود الأمثال في القرآن وأن الروح الأمين نزل بها ، وكان مثلا حين النزول على قلب سيد المرسلين ، هذا هو المستفاد من الآيات.

شأن المثل في القرآن الكريم فهو من أساليب هدايته في الدعوة والإرشاد ، ومن تصرفاته البديعة في بيان الأوصاف العجيبة الغريبة الدالة على الحقائق الثابتة، إيجابا وسلبا وإثباتا وإبطالا ، وفي بيان المعاني الرائعة التي تجذب النفس والعقل والفكر الى التأمل فيها واستجلاء أمرها، و التي تؤثر في القلوب أثرا بليغا في قبول الدعوة ، ومن أجل ذلك أحرز المثل بين الأساليب التي يتحراها القرآن في هدايته منزلة سامية.

شأن المثل في القرآن:-

دلت غير قليل من آيات القرآنية على أن القرآن مشتمل على الأمثال ، وأنه سبحانه ضرب بها مثلا للناس للتفكير والعبرة قال سبحانه : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾[2] . ومن جانب آخر أن المثل عبارة عن كلام ألقى ف

[1] سورة الحشر ، الآية :٢١
[2] سورة العنكبوت ، الآيات: ٤١-٤٣

واقعة لمناسبة اقتضت إلقاء ذلك الكلام ، ثم تداولت عبر الزمان في الوقائع التي هي غرارها ، كما هو الحال في عامة الأمثال العربية. وقد امتازت صيغة المثل القرآني بأنها لم تنقل عن حادثة معينة أو واقعة متخيلة ، أعيدت مكرورة تمثيلا وضرب موردها تنظيرا ، وانما ابتدع المثل القرآني ابتداعا دون حذو احتذاه وبلا مورد سبقه فهو تعبير فني جديد ابتكره القرآن حتى عاد متفردة في الأداء والتركيب والاشارة.

آيات الأمثال في القرآن الكريم

وفي القرآن الكريم من صريح الأمثال أربعون مَثلاً:

- **في سورة البقرة:**

١ " -مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ....إلخ"[١]

٢ " - أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ.....إلخ"[٢]

٣" -إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.....إلخ"[٣]

٤ " -وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ...إلخ"[٤]

---

[١] الآية:١٧
[٢] الآية:١٩
[٣] الآية:٢٦
[٤] الآية:١٧١

٥مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ....إلخ[1]

٦ " - فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ ....إلخ[2] "

٧ " - وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ..إلخ[3] "

٨ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ ...إلخ[4]

٩كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ...إلخ[5]

- **في سورة آل عمران:**

١٠ " -وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ... إلخ[6]"

١١" -مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ..إلخ "[7]

---

[1] الآية: ٢٦١
[2] الآية:٢٦٤
[3] الآية: ٢٦٥
[4] الآية: ٢٦٦
[5] الآية: ٢٧٥
[6] الآية:١٠٣
[7] الآية: ١١٧

- **في سورة الأنعام :**

١٢ كَٱلَّذِى ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلۡأَرۡضِ.....إلخ "[١]

- **في سورة الأعراف:**

١٣ " -فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ...إلخ[٢] "

- **في سورة يونس :**

١٤ " -إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ...إلخ[٣] "

- **في سورة هود :**

١٥ " -مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ...إلخ[٤]

- **في سورة الرعد:**

١٦ " -إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ...إلخ"[٥]

١٧أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا.....إلخ[٦]

---

[١] الآية:٧١
[٢] الآية:١٧٦
[٣] الآية:٢٤
[٤] الآية:٢٤
[٥] الآية:١٤
[٦] الآية:١٧

- **في سورة إبراهيم:**

١٨ " -مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ ....إلخ[١]

١٩ " -كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ"....إلخ[٢]

٢٠ " -وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ....إلخ[٣]"

- **في سورة النحل :**

٢١ " -ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا ...إلخ[٤]"

٢٢ " -وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ ...إلخ[٥] "

٢٤ " -وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ ....إلخ[٦]."

- **في سورة الكهف:**

٢٤ " -وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ...إلخ [١] "

---

[١] الآية : ١٨
[٢] الآية:٢٤
[٣] الآية:٢٦
[٤] الآية: ٧٥
[٥] الآية: ٧٦
[٦] الآية: ١١٢

٢٥ " -وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا...إلخ [٢]. "

- **في سورة الحج :**

٢٦ " -فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...إلخ [٣] "

٢٧ " -يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...إلخ[٤]"..

- **في سورة النور :**

٢٨ " -مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ...إلخ [٥] "

٢٩ " - وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً...إلخ [٦]. "

٣٠ " -أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ...إلخ [٧]. "

في سورة العنكبوت :

٣١ " -مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ...إلخ [٨]. "

---

[١] الآية: ٣٢
[٢] الآية:٤٥
[٣] الآية:٣١
[٤] الآية:٧٣
[٥] الآية:٣٥
[٦] الآية:٣٩
[٧] الآية: ٤٠
[٨] الآية: ٤١

في سورة الروم :

٣٢ " -ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ....إلخ [١] . "

- **في سورة الزمر :**

٣٣ " -ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا...إلخ [٢]."

- **في سورة محمد :**

٣٤ " -نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ...إلخ [٣] "

- **في سورة الفتح :**

٣٥ " -ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ...إلخ [٤]. "

- **في سورة الحديد :**

٣٦ " -كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ...إلخ [٥] "

- **في سورة الحشر :**

٣٧ " -كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ....إلخ [٦]. "

- **في سورة الجمعة :**

٣٨" -مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ....إلخ [١] . "

---

[١] الآية:٢٨
[٢] الآية: ٢٩
[٣] الآية:٢٠
[٤] الآية:٢٩
[٥] الآية: ٢٠
[٦] الآية: ١٦

- **في سورة التحريم:**

٣٩ " - ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ...إلخ [١] "

٤٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ...إلخ.[٢] -

أسلوب آيات الأمثال في القرآن الكريم:-

وآيات الأمثال تلعب دورا عظيما في تقريب الموضوع والعبر الى إفهام السامعين ، وتترك في نفوسهم أثرا بالغا يسع لهم الفكرة الواسعة الصالحة في مدلولاتها ، وأسلوب المثل المقدم من الله سبحانه وتعالى خير قدوة الهية وأسلوب رباني لمن يريد أن يقرب السامعين والقارئين اليه وأن يخلق في نفوسهم علامات التأثير وبها يغيرون حياتهم . وأسلوب المثل كان متبعا بين أدباء الجاهليين وكتابهم وشعرائهم وخطبائهم ، ومعظمها كانت متعلقة بالقصص الخرافية والأساطير الدينية ، وان الله تعالى غيّر هذه الثقافة في ضرب المثل ، ووضع الله تعالى أمامهم ثقافة بديعة مؤثرة في العقول والقلوب، والأدباء الذين نشأوا بعد نزول القرآن الكريم غيّروا ثقافتهم واتخذوا ثقافة جديدة في ضرب المثل ، ونتيجة لذلك تغيرت كتاباتهم وأساليبهم وعلاقتهم بالأدب.

أقسام الأمثال القرآنية:-

كمانرى في علم البلاغة أقسام التمثيل بكثرة ، وهذه الأقسام كلها مدينة للقرآن الكريم في أساليبها واستعمالها. لأن المثل عبارة عن إعطاء منزلة شيء لشيء عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أوغير ذلك فهو على أقسام:

---

[١] الآية: ٥
[٢] الآية: ١٠
[٣] الآية: ١١

١ – التمثيل الرمزي : - وهو ما ينقل عن لسان الطيور والنباتات والأحجار بصورة الرمز والتعمية ويكون كناية عن معاني دقيقة . فان القصص الواردة في القرآن الكريم من هذا القبيل ، ولكن قصص القرآن ليست كمانرى في المحيط الأدبي الآن بل مغاير منه ، بأن القرآن هو نفسه صرّح بأن قصصها تحكي عن حقائق غيبية لم يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم . قال سبحانه : " لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . [١]

ومنها قصة آدم مع الشيطان ، وغلبة الشيطان عليه ، أوقصة هابيل وقابيل وقتل قابيل أخاه ، أو تكلم النملة مع سليمان عليه السلام.

٢ – التمثيل القصصي :- وهو بيان أحوال الأمم الماضية بغية أخذ العبر للتشابه الموجود . يقول سبحانه : " ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ " [٢]

٣ – التمثيل الطبيعي :- وهو عبارة عن تشبيه غير الملموس بالملموس ، والمتوهم بالمشاهد ، شريطة أن يكون المشبه به من الأمور التكوينية ، قال سبحانه : " إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ

[١] سورة يوسف : الآية : ١١١
[٢] سورة التحريم : الآية :١٠

مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ "[1]

[1] سورة يونس : الآية : ٢٤

الفصل الثالث

تقسيم الأمثال القرآنية إلى الصريح والكامن

ان الأمثال القرآنية بما أنها مواعظ وعبر قد ورد الحث على التدبر فيها عن أئمة أهل البيت منها ما يلي:

١ – قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه " قد جزيتم الأمور وضرستموها ، وعظتم بمن كان قبلكم ، وضربت الأمثال لكم ، ودعيتم الى الأمر الواضح ، فلا يصم عن ذلك الا أصم ، ولا يعمى عن ذلك إلا الأعمى ، ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة "[1]

٢ – وقال علي رضي الله عنه : "كتاب ربكم فيكم ، مبينا حلاله وحرامه ، وفرائضه وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ورخصه وعزائمه ، وخاصته وعامته ، وعبره وأمثاله"[2]

فالأمثال في القرآن الكريم قسمان :

القسم الأول : ظاهر مصرح به

فالظاهر هو الذي ذكر فيه كلمة : (مَثَلُ) أو (كَمَثَلِ) أو (مَثَلاً) أو (مَثَلُهُ) أو(مَثَلُهُم) أو (الأَمْثَال) **أو** (أَمْثَالَهُمْ).

وبعض الآيات التي وردت فيها كلمة المثل ظاهرة في صورها المختلفة في القرآن كما تلي:

[1] الإمام علي كرّم الله وجهه - نهج البلاغة - شرح الإمام محمد عبده – دار الشروق – لبنان -١٧٨١ م ص : ٤٧

- مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ[1]
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ[2]

- وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[3]

- تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[4]
- ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ[5]

ويدخل في هذا النوع أمثال لا أداة فيها للتشبيه ، والتمثيل ، لكن معنى الآية يدل على أنه مثل ظاهر ، منه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ

[1] سورة البقرة : الآية : ١٧
[2] سورة البقرة ، الآية : ٢٦
[3] سورة الأعراف ، الآية : ١٧٦
[4] سورة إبراهيم ، الآية : ٢٥
[5] سورة محمد ، الآية :٣

بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ[1]

القسم الثاني : الأمثال الكامنة

وهي تلك الأمثال التي لا تدل على التشبيه ، و لا تستخدم أدواته ، ولا تدل كذلك على القياس ، وانما هي أشبه بالأمثال السائرة التي تتم كلاما موجزا ، وحكما سائرة، لذلك يطلق عليها بعض الكتاب تسمية "الأمثال السائرة في القرآن" وتدل على معان رائعة موجزة

ويمثلون لهذا النوع من الأمثال بمارواه أبو الحسن ابراهيم مضارب بن ابراهيم قال: سمعت أبي يقول : سألت الحسن بن الفضل ، فقلت انك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في كتاب الله "خير الأمور أوسطها" ؟ قال : نعم في أربعة مواضع : في قوله تعالى : "

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ "[2] وقوله تعالى :" وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"[3] وقوله تعالى:" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا "[4] وقوله تعالى :" قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا "[5]

---

[1] سورة الحجرات ، الآية :١٢
[2] سورة البقرة ، الآية : ٦٨
[3] سورة الفرقان ، الآية :٦٧
[4] سورة الإسراء ، الآية : ٢٩
[5] سورة الإسراء ، الآية : ١١٠

ونستطيع أن نحكم على بعض الآيات القرآنية حكم الأمثال الكامنة ، كقوله تعالى : "أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[1]

[1] سورة التوبة، الآية : ١٠٩

الفصل الرابع

الأمثال القرآنية وانسجامها مع البيئة

انسجام الأمثال القرآنية مع البيئة:-

لا شك أن كل خطيب يتأثر بالظروف التي يعيش فيها ،وبسهولة يمكن فرز كلام المدني عن القروي ، وكلامهما عن كلام البدوي ، وما ذاك الا لأنّ البيئة تعد أحد الأضلاع الثلاثة التي تكون شخصية الإنسان ومن هذا الجانب أصبح بإمكان المحقق الخبير بالتاريخ أن يميز الشعر الجاهلي عن الشعر في العصر الإسلامي ، والشعر في العصر الأموي و في العصر العباسي ، وماهذا الا نتيجة انعكاسات البيئة على التراث الأدبي ، ولكن بما أن كلامه سبحانه قد تنزه عن هذه الوصمة ، لأن الله سبحانه خالق كل شيء منزه من أن يتأثر بشيء سواه . ومع ذلك كله نزلت الأمثال القرآنية لهداية الناس ولذلك روعي فيها الغايات التي نزلت لأجلها ، فنجد أن الطابع المكي يعلو هامة الأمثال المكية ، والطابع المدني يعلو هامة الأمثال المدنية. أما الأمثال المكية فكانت دائرة مدار معالجة الأدواء التي ابتلي بها المجتمع المكي لا سيما ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يجادل المشركين ويسفه أحلامهم ويدعوهم الى الايمان بالله وحده ، وترك عبادة غيره ، والايمان باليوم الآخر ، ففي خضم هذا الصراع يأتي القرآن بأروع مثل ويشبه آلهتهم المزعومة التي تمسك بأهدابها ببيت العنكبوت الذي لا يظهر أدنى مقاومة أمام النسيم الهادئ ،وقطرات المطر ، وهبوب الرياح .

يقول سبحانه : " مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ"[1]

ولقد مضى على الناس منذ ضرب لهم كتاب الإسلام أربعة عشر قرنا ، وما يزال

[1] سورة العنكبوت : الآية : ٤١

المثل القرآني يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء ، ومايزال على الذين غرهم الغرور بما حقق إنسان العصر الحديث من معجزات العلم ، أن ينسخوا ذلك.
وأما الأمثال التي نزلت في المدينة ، فقد نجد فيها الطابع المدني لأجل أنها بصدد علاج الأدواء التي ابتلي بها المجتمع يومذاك وهي الأ دواء الخلقية مكان الشرك والوثنية ، أو مكان إنكار الحياة الأخروية ، فلذلك ركز الوحي علي معالجة هذا النوع من الأدواء بالتمثيلات.
وفي العصر الذي نعيش فيه نواجه عدة قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية والمنزلية ، واذا أجرينا أمثال القرآن الكريم على هذه القضايا نحن نجد المشابهة بين القضايا التي كانت موجودة في عهد نزول القرآن الكريم والتي وجدناها في هذا العصر والتي تكون في العصور القادمة .

الفصل الخامس

أهمية الأمثال القرآنية في التربية

التربية بضرب المثل :

المراد بضرب المثل سوق الصور، والقصص، والوقائع المتشابهة، ليستدل بالحاضر على الغائب، وبالمحسوس على غير المحسوس، أو بالمحسوس من الصور الوقائع على نظائرها وأشباهها، والمقصود من ضرب المثل تقريب الأمر للمخاطب، وترسيخه في ذهنه لتحصل العبرة والعظة من ذلك.

ولذا نجد أن القرآن الكريم أكثر من ضرب الأمثال، قال تعالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾

وقال جل وعلا في تمثيل الحق والباطل : أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

يقول الشوكاني: وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني[٣]

ويقول ابن سعدي : فإن في ضرب الأمثال، تقريبًا للمعاني المعقولة، من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله، غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته، وحسن تعليمه، فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه.

---

[١] سورة الروم : الآية : ٥٨

[٢] سورة الرعد : الآية : ١٧

[٣] محمد بن علي بن محمد الشوكاني – فتح القدير في التفسير – دار النشر – لبنان -١٦٧٤

والأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص؛ لأنها أثبتت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالمشاهد، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

وضرب الله - تعالى - المثل بالعنكبوت، والبعوضة، والذباب، وغير ذلك، وكل أمثال القرآن عظيمة مؤثرة، تأخذ بالقلوب، وتهز النفوس، وتجسد المعاني في صور ماثلة للعيان كأن المرء يحسها ويلمسها بيده.

وضرب النبي - صلى الله عليه وسلم - الأمثال في دعوته، ومن ذلك تشبيهه الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وهذا من حكمة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه جمع بين الترغيب والحث على مجالسة من يستفاد من مجالسته في الدين والدنيا، وحذر من مجالسة من يتأذى بمجالسته فيهما، فمن أمثال القرآن:

قال الله -عز وجل:- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾[1] حق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، فالآلهة التي تُعبَد من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف بما هو أكبر منه، بل لا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه،أو من أمتعة الحياة المادية، فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو

[1] سورة الحج : الآيات : ٧٣،٧٤

أضعف المخلوقات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة الباطلة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟.

ومن أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده، قوله تعالى: مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾[1]

فهذا مثل ضربه الله – سبحانه - لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز والتقوي والنفع، فبين - سبحانه - أن هؤلاء ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء من دون الله أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من إتّخاذ الأولياء كالعنكبوت التي هي من أضعف الحيوانات، اتخذت بيتًا وهو من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا، وكذلك من اتخذ من دون الله أولياء، فإنهم ضعفاء، وازدادوا باتخاذهم ضعفًا إلى ضعفهم.

ومن أبلغ الأمثال التي تبين أن المشرك قد تشتت شمله واحتار في أمره، ما بينه تعالى بقوله:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلٗاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾[2]

[1] سورة العنكبوت : الآيات : ٤١، ٤٢، ٤٣
[2] سورة الزمر : الآية : ٢٩

فهذا مثل ضربه الله - تعالى- للمشرك والموحد، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شُبِّهَ بعبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون، سيئة أخلاقهم، يتنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، فهو في عذاب.

والموحد لما كان يعبد الله وحده لا شريك له، فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه واختلافهم، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ والجواب: كلا، لا يستويان أبدًا.

وقال تعالى:-

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾[1]

قال ابن القيم الجوزية :" فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلا ناريًّا ومثلا مائيًّا لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء

[1] سورة البقرة : الآيات : ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠

مادة الحياة، وقد جعل الله - سبحانه - الوحي الذي أنزل من السماء متضمنا لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحًا ونورًا، وجعل قابليه أحياء في النور ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات"[1].

وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي أنهم بمنزلة من استوقد نارا لتضيء له، وينتفع بها وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام، فاستضاءوا به وانتفعوا به.
تشبيه الكفار بالمطر المصاحب للظلمة والرعد والبرق وآمنوا به وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طغى عنهم وذهب الله بنورهم.
ولم يقل: نارهم فإن النار فيها الإضاءة والإحراق فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وتركهم في ظلمات لا يبصرون فهذا حال من أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه لا يرجع إليه ولهذا قال : فهم لا يرجعون.
ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي؛ فشبههم بأصحاب صيب وهو المطر الذي يصوب أي ينزل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق؛ فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوفه جعل أصبعيه في أذنيه خشية من صاعقة تصيبه.

[1] ابن القيم الجوزية – الأمثال في القرآن الكريم _ دار المعرفة – بيروت (١٩٨١)

Shafeeq Rehman, P. “The Parables and Similes of the Holy Qur’an and its impacts in the Arabic literature with special reference toThafseer Al Kasha’f”.Thesis, Department of Arabic, Farook College, University of Calicut, 2018.

الباب الثاني

البيان والتفصيل في الأمثال القرآنية التى تتعلق بالإيمان

الفصل الأول :- بيان المثل الذي ورد في القرآن في الحق والباطل

الفصل الثاني : - مثل من أعرض عن كلام الله تعالى

الفصل الثالث : - الأمثال النبوية

الفصل الرابع : - التمثيل بالحشرات والحيوانات في القرآن الكريم

الفصل الخامس : - المناظر الطبيعية الموجودة في التمثيل القرآني

الفصل الأول

بيان المثل الذي ورد في القرآن في الحق والباطل

ان أجمل امثال القرآن هو مثل الحق والباطل، يقول الله تعالى في بيان هذا المثل ذات المغزى العميق في الآية :أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾

تصويرالبحث

إنَّ الحديث في هذا المثل عن الحقّ والباطل وسعتهما ومجاليهما وعلائمهما وآثارهما وتعريفهما، وفي النهاية المواجهة الطويلة والمتواصلة بينهما التي كانت على طول التاريخ .

أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فسالَتْ أوْدِيةٌ بِقَدَرِهَا :إنَّ نتيجة هطول الامطار على الجبال ونزوله منها هو تجمع المياه في الاودية حسب حجمها، وجريانه وصيرورته أنهاراً صغاراً، وإذا التقت صنعت نهراً كبيراً، واذا تجاوز الماء سعة النهر تبدّل إلى سيول عظيمة ومخرّبة .

[1] سورة الرعد : الآية : ١٧

فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً : هذه الانهار كثيراً ما يحصل فيها أمواج تضرب الاحجار والموانع التي تقع في طريقها، وهذه العملية توجد زبداً في الماء يشبه الزبد الذي يوجده مسحوق الغسيل، يتجمّع على سطح النهر يبدو ساكناً، أمّا النهر فيستمر في حركته تحت الزبد .

ومِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَة أو مَتَاع زَبَدٌ مِثْلُهُ : هذا الزبد الأجوف والمتكبّر لا يختص بالماء بل قد يحصل للفلزات عند الصهر والذوبان مثل الحديد والنحاس وغيرهما .

ما يلفت النظر هنا هو أنَّ عبارة **مِمَّا يُوْقِدُونَ عَلَيْهِ** أشارت بظاهرها إلى أنَّ النار تُسلّط من الفوق على هذه المعادن رغم أنَّ النار في السابق كانت توقد على الفلزات من تحت ،أمّا حالياً فمعامل الصهر المتطوّرة تسلّط النار من فوق ومن تحت ،أي لم تستغن عن تسليط النار على الفلز من الاعلى، وهو أمر أشار له القرآن منذ ذلك الحين .

كَذَلك يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ والبَاطِلَ : أي أنَّ الله لأجل إيضاح المواجهة بين الحق والباطل والتي يمتد عمرها إلى طول التاريخ يضرب هذا المثل، فيشبّه الحق بالماء والباطل بالزبد الأجوف .

فأمّا الزّبدُ فيَذْهَبُ جُفَاءً : فإنَّ الزبد، رغم تفوقه على الماء ورغم علوه عليه، يذهب جفاء وكأنَّه لا شيء. إنّ الأمواج التي توجدها السيول هي السبب في ايجاد هذا الزبد، وبمجرد أن تصل المياه المتلاطمة إلى سهول تصبح آسنة وسرعان ما يذهب الزبد وتترسب الاوساخ العالقة في الماء ولا يبقى إلاَّ الماء الخالص ، ذلك لأنّ عمر الباطل قصير، والهلاك هو نهايته .

وأمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأرْضِ : فالذي يبقى هو ما ينفع الناس من الماء الصافي والفلزات الخالصة. فالماء، إمَّا أن يركد في مكان يستخدم للشرب والسقي

وإمَّا أن ينفذ في الأرض ليلتحق بالمياه الجوفية ذخراً للمستقبل، يستخدم بعد ما يخرج كعيون تلقائياً أو من خلال حفر الآبار .

كَذَلك يَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ :أي يبيّن الله هذه الأمور للناس في صورة أمثال لكي تدرك بشكل أفضل .

لقد تناولت الآية قضايا دقيقة جداً ممّا يتعلّق بالحق والباطل باقتضاب، نقوم هنا بتفصيل هذه القضايا وبيانها .

تعريف الحق والباطل

على أساس هذه الآية، فإنَّ الحق يعني الحقائق والواقعيات، وأما الباطل فيعني الاوهام والخيالات التي لا أساس لها .

إنَّ الماء واقع وحقيقةً، يتطابق ظاهره مع باطنه، وله آثار واقعية. أمّا الزبد فله ظاهر خادع من دون أن يكون له باطن، كما هو الحال في الخيالات والأوهام .

لقد جاء في الآيتين من سورة الاعراف في بيان قصة موسى عليه السلام مع السحرة كما يلي : وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ [1].

إنّ الحق هو معجزة النبيّ موسى عليه السلام ، والباطل هو سحر السحرة، فالمعجزة حقيقة وواقع، لأنَّ عصا موسى عليه السلام تبدلت واقعاً إلى أفعى ولم تكن الحادثة تلك شعوذة - نعوذ بالله - أمّا أفاعي السحرة فكانت شعوذة خالصة ولم تكن واقعاً، بل إفكاً، كما يعبر عنها القرآن .

[1] سورة الأعراف : الآيات : ١١٧،١١٨

إنَّ السحرة كانوا قد أعدوا عصياً وحبالا ملؤوها بالزئبق، ووضعوها جميعاً في مكان ما، وكان الناس وفرعون والسحرة وكذا موسى عليه السلام جالسين يشاهدون ما يحصل .عندما سطعت الشمس على هذه الحبال والعصي ارتفعت درجة حرارة الزئبق، الأمر الذي جعل الحبال والعصي تتحرك وتلتوي على بعضها البعض بحيث تبدو كانها أفاعي، ولكنَّها في الواقع خيال لا أكثر .

مما يستفاد من الآية هو أنَّ علامة الحق كونه مفيداً للناس، وعلامة الباطل كونه مضراً لهم، فالماء مفيد وله تأثير، والزبد مضر ولا فائدة تتوخى منه ،وذلك لأن الزبد لا يروي ظمأ العطشان ولا يسقي الزرع ولا يُنميه ولا يولّد شيئاً من الطاقة، ولا يُشغّل طاحونة أو دولاباً .

ومن العلائم الاخرى للحق والباطل هو كون الحق خاضعاً ومتواضعاً، أما الباطل فمتكبر .فالحق هو الماء المتواضع تحت الزبد، وأما الباطل فهو الزبد العالي والمتكبّر .

العلامة الثالثة للحق والباطل هو أنَّ الباطل ضوضائي، أما الحق فهاديء وساكن. فالماء هادئ وساكن، أمّا الزبد فصارخ وصاخب، ولا يمكنه العيش دون هذا الضوضاء والصراخ والصخب .

سعة الحق والباطل

إنَّ سعة الحق والباطل بسعة مفاهيم الحياة. فالحق والباطل لا ينحصران في جانب من الحياة، بل يعمان جميع شؤونها ويشملانها، من السياسة والثقافة والصحافة وغير ذلك. وبعبارة اخرى: يشمل جميع الجوانب المادية ،والمعنوية للحياة. وهذا المعنى يستفاد، من القرآن المجيد ومن آية المثل ذاتها، فكما أنَّ الزبد لا يختص بالماء كذلك الباطل لا يختص في شيء ما .

عاقبة المواجهة بين الحق والباطل

في هذه المواجهة يبقى الحق ويزهق الباطل ويمحق، إلاّ أنَّ انتصار الحق على شكلين مؤقت وزمني وآخر نهائي. إن أنصار الحقّ إذا استقاموا ولم ينحرفوا فسينتصرون في أزمنة مختلفة ما داموا مستقيمين غير منحرفين، أمّا النصر النهائي فلا يحصل إلاّ بظهور صاحب العصر والزمان بقية الله الأعظم عجل الله تعالى فرجه ، وحينئذ سيتغير وجه الدنيا وستحكم الدنيا حكومة عالمية حقة .

من الآيات التي فسرت "الحجة" لابن حسن العسكري عليه السلام [1] هي هذه الآية، حيث فسِّر الماء في المثل بوجود الحجة المبارك، والزبد بالظلم والجور والانتهاز والاستعمار فانها ستزول يوماً ما .

المواجهة بين الحق والباطل دائمة

كما أشرنا سابقاً، فإنَّ المواجهة بين الحق والباطل بدأت منذ بداية الخلق، والعصور جميعها ضمت هذين الظاهرتين، وستضم العصور المقبلة هذين الظاهرتين وستستمر هذه المواجهة حتى النهاية. لقد كان لكل نبي شيطان، فقبال آدم عليه السلام كان ابليس، وقبال الأنبياء الآخرين شياطين آخرون، كما تكشف الآية التالية عن هذا الأمر : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ

يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ

فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾. [2]

[1] الحسن بن علي العسكري
[2] سورة الأنعام : الآية : ١١٢

المستفاد من الآية الشريفة هو أنَّ الشيطان ليس شيئاً خفياً دائماً، بل قد يكون من الناس أنفسهم، وقد يكون هذا هو سبب تقديم الآية شياطين الإنس على الجنّ .

وعلى هذا، فإنَّ المواجهة بين الحق والباطل لا زالت مستمرة حتى استقرار حكومة الحق وبسط سيطرتها على بقاع الأرض جميعاً، وتتحقق الآية الشريفة التالية :**وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا** ﴿٨١﴾[1] ، في ظل ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ، والمواجهة قبل ذلك متواصلة .

كيفية تبلور الباطل

كيف نشأ الباطل وتبلور؟ هل الله تعالى هو الذي خلق بعض الموجودات الباطلة رغم أنَّه حق بل ابرز وأرفع حق؟

إنَّ الباطل موجود عدمي وهو وهم وخيال قد تلبّس ثوب الحق، مثل الزبد الأجوف، ذات الظاهر الخلاب والخادع .

الجميل هنا هو أنَّ الباطل اذا عمل على إبطال نفسه فذلك ببركة الحق. إنَّ المزيفين - الذين يعتمدون الزيف كمهنة لهم - إذا لم يتقمّصوا قمصان ذوي الشأن والاعتبار سوف لا يتوفقون في عملهم الباطل هذا، كذلك الكذّابين فإنَّهم إذا لم يتمسكوا بالحق ولم يتظاهروا بالصدق لما صدّقهم أحد .والمنافق إذا لم يرتدِ ثوب الإنسان الصالح، والعدو إذا لم يتقمص قميص الصديق، والزبد إذا لم يطفو على الماء، وبالجملة مالم يجتمع الباطل بمختلف مصاديقه إلى جنب الحق فلا تكون هناك مواجهة. وعليه فالباطل عدمي ووجوده يتوقف على الحق، أمّا الحق، فأمر وجودي وهو مصدر البركات والمنافع وذي آثار كثيرة للإنسان .

[1] سورة الإسراء : الآية : ٨١

بما أنَّ أهم بحث في حياة الإنسان هو قضية الحق والباطل ، وهي تخص بموقع خاص عند جميع البشر بمختلف توجهاتهم الفكرية، لذلك كان من المناسب دراسة هذه القضية من وجهة نظر الآيات والروايات.

لقد تحدث القرآن عن الحق والباطل بمقدار كثير، وتكررت مفردة الحق ٢٤٤ مرة، مع أنَّ مفردة الباطل تكررت ٢٦ مرة فقط .

وهذه النسبة تكشف عن أنَّ القرآن المجيد ذاته من مصاديق الحق .

لقد ذكر في القرآن مصاديق مختلفة للحق نشير إلى بعض منها هنا :

١ -أبرز وأرفع مصداق للحق هو ذات الله القدسية، وهي في الحقيقة جامعة لجميع مصاديق الحق، وهي عين الواقع والوجود المطلق .

من هنا صرّح الله في الآية الكريمة ما يلي: ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ [1] فعلى أساس هذه الآية، إنَّ الله الذي لا مثيل له هو الحقّ .

٢- النموذج الآخر وهو من أبرز مصاديق الحقّ عبارة عن خلق السموات والأرض أو الكون أجمع. تقول الآية الشريفة :وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [2]

[1] سورة الأنعام : الآية : ٦٢
[2] سورة الجاثية : الآية : ٢٢

٣- المصداق الثالث للحق هو القرآن نفسه; وذلك لأن الآية من سورة المائدة عند بيانها لهذا المطلب تقول : وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾[1] .

٤- الدين المبين والمنقذ للبشرية، أي الإسلام، وهو مصداق واضح آخر من مصاديق الحق. لذلك يقول الله تعالى :هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾[2] ، وخلاصةً، كل وجود هو منبع لخير البشر وسعادتهم يُعدّ حقاً، لذلك كان الله الحق المطلق; لأنَّه منبع جميع البركات والسعادات، كما أن السماوات والأرض والقرآن المجيد ودين الإسلام والتوحيد، باعتبارها جميعاً منشأ للهداية والبركة، عدّت حقاً .

وكل شيء هو منبع ومصدر للشقاء فهو باطل، مثل الشيطان والأصنام وعبادتهما والرياء والتظاهر والنفاق وامثال ذلك .

[1] سورة المائدة : ٤٨
[2] سورة الفتح : الآية : ٢٨

جولة الباطل ودولة الحق

المستفاد من الروايات هو أنَّ الباطل قد يكون له جولة وصراخ وصخب إلاّ أنَّ عمره مهما كان فهو قصير ومؤقّت: للباطل جولةٌ وللحقّ دولة والدولة هي الثبات والبقاء والخلود، والجولة هي النفاق والخداع المؤقت .

حسب ما ورد في الروايات الإسلامية، على المسلم في كل حال أن يكون مع الحقّ والحقيقة. إذا أردت التسلّح بسلاح النصر أمام الأعداء، فعليك التمسك بسيف الحقّ الصارم، كما قال الإمام علي عليه السلام : "الحق سيف قاطع".

إذا أردت أن تكون من أهل النجاة في مقام العمل، وأن تكون صاحب حجة وبرهان في مقام الكلام، فعليك بالتوجّه نحو الحقّ، كما يقول الإمام علي عليه السلام :

" الحقّ منجاة لكل عامل وحجّة لكلِّ قايل"[1].

إذا أردت من الاخرين قبول كلامك، واذا ابتغيت النصر، فقل الحقّ والتزمه. وإذا أردت مركبا هادئاً يوصلك إلى غايتك فكن مع الحقّ. يقول الإمام علي عليه السلام: : "ألا وإنّ الحق مطايا ذلل، ركبها أهلها، وأعطوا أزّمتها، فسارت بهم الهوينا حتى أتت ظلاً ظليلا"[2].

تقترن مع الحق والدفاع عنه مشاكل; وذلك لأنّه مرٌّ والباطل حلو .إنَّ مرارة الحقّ كمرارة الدواء الذي فيه شفاء، وحلاوة الباطل كحلاوة السم القاتل، لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "الحق ثقيل مرٌّ، والباطل خفيف حلوٌ، ورُبَّ شهوة ساعة تورث حزناً طويلا"[3].

---

[1] نهج البلاغة، ص: ٨٤
[2] نهج البلاغة، ص: ٩٣
[3] رقم الحديث: ٢٩٠

نعم، انَّ الحقّ ثقيل ومرّ; لأنَّه لا يكون في صالح الإنسان دائماً بل قد يضره، وقد يكون عكس ما تروق له النفس والشهوات الإنسانية، وقد يتزامن مع لوم الاخرين وعتابهم ومع مشاكل جمّة يثقل على الإنسان تحّملها، أما الباطل فخفيف وحلو، لكنه كالسم القاتل، لذلك قد يؤدي إلى ندم يرافق الإنسان حتى موته، كما لو ارتكب الإنسان ذنباً لم يستغرق فترة طويلة، لكن عقابه الحبس المؤبد، فذلك يعني كفارة ساعة من الذنب عمر في الحبس والسجن .

المهم هنا هو أنّ الباطل لا يظهر بثوبه الحقيقي دائماً وذلك لأنَّ اتضاح واقعه يعني عدم تمكّنه من الخداع، بل إنّه يظهر بمظهر الحق لكي يغرَّ ويخدع الكثير .يقول الإمام علي رضي الله عنه في هذا المجال في الخطبة رقم خمسين من نهج البلاغة: "يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهناك يستولي الشيطان على أوليائه"[1] .

أي بما أنَّه لا زبون للباطل المحض، لذلك يمزجه أتباعه مع شيء من الحق ليبدو وكأنه حقّ، فعندئذ يأتي دور الشيطان ليستولي على أوليائه وأصحابه .

لذلك علينا أن لا ننخدع بالظاهر، إذا أردنا شراء كتاب مثلا فما علينا أن ننخدع بغلافه الجميل أو يغرّنا عنوانه الخلاّب وشعاراته، وذلك لأنّ أهل الباطل قد يستخدمون هذه الخدع لترويج سمومهم وأباطيلهم. وهذا الأمر نفسه صادق بالنسبة للافلام والمسرحيات والجرائد والمجلات والاساتذة والمعلمين والجيران والأحزاب وغيرها.

إنَّ أهل المعرفة والبصيرة هم الذين يميزون الباطل عن الحقّ، وذلك لما أعطاهم الله من "فرقان" منحةً لتقواهم .

[1] علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نهج البلاغة

هناك الكثير من المطالب المدونة عن فضائل الإمام علي رضي الله عنه وشخصيته وردت في كتب السنة والشيعة، ومن جملة ما اتفق الفريقان على نقله هو الحديث العجيب واللطيف القائل: "علي مع الحقّ والحقّ معه وعلى لسانه، والحقّ يدور حيثما دار عليّ" [1] وهو حديث منقول عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله .

إنّ هذا الحديث مقياس معتبر لتمييز الحقّ عن الباطل ولذلك أفادت بعض الروايات أنَّ المسلمين في صدر الإسلام عندما يتشابه عليهم المسلمون والمنافقون والمتظاهرون بالإسلام ويصعب تمييز ذلك، أفادوا من هذا المقياس واعتبروا المسلمين هم المحبون لعلي وأتباعه، المنافقون هم الذين يكنّون العداء والبغض له.

إنَّ الشيعة تفتخر بأن لها زعيماً عظيماً ومحقاً ما كان يمنعه شيء عن احقاق الحقوق، ما كان يتحمل الانحراف عن جادة الحقّ ولو كان صادراً من صحابي أو أحد أقربائه، وكان يأمر بالجيران بمجرد حصوله .

من جملة مصاديق هذا الكلام هو قصة قنبر غلام علي الوفي وعضده التنفيذي في حكومته، لقد أُمر هذا الغلام بإِجراء حدِّ الجلد، إلاّ أنه أخطا في التنفيذ وزاد على الحدّ ثلاث جلدات على المجرم، فأمر هذا القائد المحق قنبر أن يعدّ نفسه لأجل اقتصاص المجرم منه.

ونقرأ في قضية عقيل أنه ما وافق منحه شيئاً زائداً على ما منحه للمسلمين، بل أحمى حديدة وقرّبها من يد عقيل، فصاح عقيل من شدّة الحرارة.

[1] الإمام أحمد ، مسند : رقم الحديث: ٨٧٦

الفصل الثاني

مثل من أعرض عن كلام الله تعالى

فهذا بحث مشتمل على لطائف متفرقة وفوائد متنوعة منبثقة من النظر والتأمل لقوله تعالى في شأن المعرضين والمتكبرين عن ذكر الله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1]

حيث بين الله تعالى الجزاء الرادع في الدنيا لكل من أعرض عن ذكر الله وصد عنه سواء بفعله أم بقوله وهو عقاب أليم وجزاء عظيم تقشعر منه الأبدان وتذرف له العينان وحق لكل عاقل من بني الإنسان أن يتأمل الأسباب المؤدية إلى هذا الخسران وأن يحرص كل الحرص ويعقد العزم على مبارحتها وعدم قربها ففي ذلك النجاة والفوز بإذن الرحيم الرحمن ...

ومما لاشك فيه ولا مراء أن كتاب الله العظيم قد حوى كنوزاً من العلوم وفوائد عظيمة تحتاج إلى النظر والتدبر ليقف المرء على ما حوته من الفوائد والدرر ، قال الله تعالى : ﴿يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[2] وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ وَلَقَدْ ﴿٢٤﴾﴾[4].

---

[1] سورة طه : الآية : ١٢٤
[2] سورة القمر : الآية : ١٧
[3] سورة صاد : الآية : ٢٩
[4] سورة محمد : الآية : ٢٤

وبعض الناس خلال بحثه عن الحق وسعيه في طلبه ربما زين لهم الشيطان التمادي بعقولهم وذلك بإعطائها أكبر مما تستحق فيدفع الإنسان عقله وتفكيره إلى متاهات هو غني عنها ما أنزل الله بها من سلطان وليس مكلفاً بالبحث فيها فتكون نتائج هذا التفكير وخيمة وعواقبه عظيمة لأن العقل هنا تجاوز حدوده التي شرعها الله له فكما أن البصر والسمع محدودان وطاقة الإنسان وقدرته محدودة فكذلك عقله محدود بحدود ومضبوط بضوابط لا يسوغ له تجاوزها ولا يسعه مبارحتها فإن فعل ذلك ضل وأضل فلابد إذن لهذا العقل من الاسترشاد بتعاليم الشرع ولابد له من الاستنارة بنور الإسلام فالعلم المبني على الكتاب والسنة المتلقى من الشارع الحكيم هو طريق العقل في مسائل الغيب والأمور التي لا مجال للعقل فيها أما أن يتخبط الناس في هذه الأمور ويخوضوا في مجال ليس لهم الخوض فيه ففي هذا هلاكهم وضلالهم ، وبيان الآثار التي تترتب على الغفلة عن ذكر الله والإعراض عنه وكذا بيان منزلة العقل ومكانته في الإسلام وتكريم الإسلام له واهتمام القرآن به من خلال هذه الآية الكريمة والتي تذم المعرضين عن ذكر الله وترتب الجزاء الدنيوي والبرزخي والأخروي لهم وكذا الذين يحكمون عقولهم في كتاب الله وشرعه وأنهم من أعظم المعرضين عن ذكر الله الصادين عنه وقد اقتضت طبيعة البحث معالجته من خلال المسائل التالية :

معنى الإعراض :

قال الراغب في مفرداته : أعرض : أظهر عرضه أي ناحيته فإذا قيل : أعرض لي كذا أي : بدا عرضه فأمكن تناوله [1]. وإذا قيل : أعرض عني فمعناه ولى مبدياً عرضه قال تعالى :ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ [2]وقال سبحانه :فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ [3] وقال

[1] المفردات في غريب القرآن
[2] سورة السجدة ، الآية: ٢٢
[3] سورة النساء ، الآية : ٦٣

تعالى وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ[1] وقال: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى[2] وقال: وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ[3].

وقال ابن فارس : ومن الباب أعرضت عن فلان وأعرضت عن هذا الأمر وأعرض بوجهه لأنه إذا كان كذا ولاه عرضه .

إذن الإعراض هو الصد والتولي عن ذكر الله ، ومعنى أعرض : أي صد وانصرف وتولى عن القرآن والدلائل التي أنزلها الله لعباده ولم ينظر فيها . فمن انشغل عن ذكر الله وابتعد عن التعلق بالله أو وقف في سبيل انتشار دين الله وحاربه وخاصمه فهو معرض عن الذكر صادٌ عنه وقد تولاه الشيطان واستشرفه .

ومن تولى عن القرآن وأعرض عنه تلاوةً وتدبراً وعملاً فهو معرض عن كتاب الله تعالى .

ومن حكَّم القوانين الوضعية ورغب عن أحكام الله المبنية على القرآن والسنة فهو معرض عن كتاب الله وذكر الله .

ومن تبع الأهواء والآراء والأمزجة ونتاج العقول البعيد عن منهج الله فهو معرض عن الذكر .

فالخلاصة أن الإعراض هو التولي والصد عن الذكر وجعل الذكر في ناحية غير الناحية التي فيها الشخص .

---

[1] سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩
[2] سورة طه ، الآية : ١٢٤
[3] سورة الأنبياء ، الآية : ٣٢

معنى الذكر :

قال في القاموس المحيط :[1] الذكر بالكسر : الحفظ للشيء كالتذكار والشيء يجري على اللسان والصيت كالذكرة بالضم ، والثناء والشرف والصلاة لله تعالى والدعاء ، والذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً باستحضاره وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ... ولذلك قيل الذكر ذكران : ذكر بالقلب وذكر باللسان وكل واحد منهما ضربان ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ وكل قول يقال له ذكر فمن الذكر باللسان قوله تعالى " لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم " .

وقوله تعالى : وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ[2] .

وقوله : هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى[3].

وقوله : أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا[4].

وقوله : صٓ[5] وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ[6].

ومن الذكر عن النسيان قوله وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ

---

[1] مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروز آبادي - القاموس المحيط – ١٤١٠- ط:١ دار الأرقم

[2] سورة الأنبياء ، الآية : ٥٠

[3] سورة الأنبياء ، الآية : ٢٤

[4] سورة صاد ، الآية : ٨

[5] سورة صاد ، الأية : ١

[6] سورة الكهف، الآية : ٦٣

ومن الذكر بالقول واللسان قوله فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ[1]

والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى ويحتمل أن يراد به الأدلة وقال ابن القيم : قوله "عن ذكري "أي عن الذكر الذي أنزلته . والذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل كقيامي وقراءتي لا إلى المفعول وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرني بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر [2] .

وقوله " لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر "

والتذكرة ما يتذكر به الشيء وهي أعم من الدلالة والأمارة وقد ذكر الله الذكر في القرآن على عشرين وجهاً :-

١ : ذكر اللسان " فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ "

٢ : ذكر بالقلب " ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ " [3]

٣ : بمعنى الوعظ " وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ " [4]

٤ : بمعنى التوراة " فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ " [5]

٥ : بمعنى القرآن " وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ " [6]

---

[1] سورة البقرة ، الآية : ٢٠٠
[2] الأمثال في القرآن الكريم : ص : ٥٤
[3] آل عمران : ١٣٥
[4] الذاريات: ٥٥
[5] النحل : ٤٣
[6] أنبياء: ٥٠

٦ : بمعنى اللوح المحفوظ " وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ " [١]

٧ : بمعنى رسالة الرسول " أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ " [٢]

أي : رسالة

٨ : بمعنى العبرة " أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا " [٣]

٩ : بمعنى الخبر " هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي " [٤]

١٠ : بمعنى الرسول " قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا " [٥]

١١ : بمعنى الشرف " وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ " [٦] أي : شرف

١٢ : معنى التوبة " ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ " [٧]

١٣ : بمعنى الصلوات الخمس " فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم " [٨]

١٤ : بمعنى صلاة العصر خاصة " أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي " [١]

---

[١] أنبياء: ١٠٥
[٢] أعراف:٦٣
[٣] الزخرف:٥
[٤] أنبياء: ٢٤
[٥] الطلاق:١٠
[٦] الزخرف : ٤٤
[٧] سورة هود: ١١٤
[٨] البقرة : ٢٣٩

١٥ : بمعنى صلاة الجمعة " فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ " [٢]

١٦ : بمعنى العذر من التقصير " فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا " [٣]

١٧ : بمعنى الشفاعة " ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ " [٤]

١٨ : بمعنى التوحيد " وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى " [٥] " ومن يعرض عن ذكر ربه "

١٩ : بمعنى المنّة " ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ " [٦]، "اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم "

٢٠ : بمعنى الطاعة والخدمة " فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ " [٧]

معنى معيشة الضنك :

الضنك : الضيق في كل شيء للذكر والأنثى ، ويقال : ضنكاً وضناكة وضنوكة : أي ضاق .

---

[١] صاد : ٣٢
[٢] الجمعة : ٩
[٣] النساء : ١٠٣
[٤] يوسف : ٤٢
[٥] طه : ١٢٤
[٦] مائدة : ١١٠
[٧] البقرة : ١٥٢

وفلان ضناكة فهو ضنيك ضعف في رأيه وجسمه ونفسه وعقله .

وامرأة ضناك : مكتنزة اللحم إذا اكتنز تضاغط .

والضناك الزكام لضيق المنخرين والمزكوم : مضنوك وكل عيش أو منزل أو مكان ضيق فهو ضنك قال عنترة :[1]

إن المنية لو تمثل مثلـــث مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

وقال : وإن نزلوا بضنك أنزل

وقد اختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً .

فقيل في الدنيا ، وقيل عذاب القبر فقد روى عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري أنهما قالا : هو عذاب القبر .

وساق المفسرون هنا حديثاً عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " معيشة ضنكا " قال : عذاب القبر .

قال ابن كثير :" أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة" [2].

يقول ابن القيم رحمه الله في الجواب الكافي :[3]

ومن عقوبات المعاصي : المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة قال تعالى " ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة

[1] شرح ديوان عنترة بن شداد - أمين سعيد – الطبعة الغربية - مصر
[2] الحافظ ابن كثير – تفسير ابن كثير – ط: ٢ – دار ابن حزم - ٢٠١٥
[3] ابن القيم الجوزية - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي – مكتبة العلم ، جدة – ط:١ – ١٩٩٦ م

أعمى " . وقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنه من المعيشة الضنك والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره فالمعرض عنه له ضنك المعيشة بحسب إعراضه وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه وإنما تتوارى عن سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر فإنه يفيق صاحبه ويصحو وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون "

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين .

ونظير هذا قوله تعالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ [1]

[1] سورة النحل ، الآية : ٣٠

ونظيرها قوله تعالى: وَأَنِ تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾[1]

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته .

من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ولا نسبة لنعيم البدن إليه وقد قال بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الجنة بقوله " إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر "

وقال صلى الله عليه وسلم " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة "

ولا تظن أن قوله تعالى:إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾[2] يختص بيوم المعاد فقط بل أن هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة وأي نعيم ولذة في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم .

---

[1] سورة هود ، الآية : ٣
[2] سورة الانفطار ، الآية : ١٢ ، ١٣

فالمعيشة الضنك تشمل الدنيا والآخرة والبرزخ على الصحيح وذلك أن الجزاء من جنس العمل فمن أعرض عن ربه وابتعد عن دينه وأقبل على الدنيا أصيب بشدة الحرص على الدنيا والتهالك على ازديادها والخوف من انتقاصها وغلب عليه الشح بها حيث لا غرض له سواها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة .

ويحتمل كونها ضنكا أي أنها سبب للضنك يوم القيامة فيكون وصفها بالضنك للمبالغة كأنها نفس الضنك .

هل المراد عمى البصر أم عمى البصيرة :

اختلف في قوله تعالى " ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى " هل المراد عمى البصر أم عمى البصيرة ، والذين قالوا إنه من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله تعالى " أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ " [1]

وقوله " لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ " [2] وقوله " يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ " [3]

وقوله" لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾ " [4] ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة كقوله " وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ "[5] وقوله " يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾

---

[1] مريم : ٣٨
[2] قاف : ٢٢
[3] فرقان : ٢٢
[4] التكاثر : ٦ ، ٧
[5] الشورى :٤٥

هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ "[1] وقوله " وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾"[2]

والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا : السياق يدل عليه لقوله " قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ "[3] وهو لم يكن بصيرا في كفره قط بل قد تبين له الرجاء وتبكم حينئذ أنه كان في الدنيا قد عمى عن الحق فكيف يقول " وقد كنت بصيرا " وكيف وعميت عنه بصيرته أعمى الله به بصره يوم القيامة وتركه في العذاب . وقال آخرون هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى " قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ "[4] فحينئذ ينقطع يجاب بقوله " قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا "[5]

بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزي من جنس عمله فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله العقول ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق .

وقال محمد الأمين الشنقيطي :" قيل المراد أنهم لا يرون شيئاً يسرهم ولا يسمعون كذلك ولا ينطقون بحجة كما أنهم كانوا في الدنيا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا

[1] سورة الطور : ١٣
[2] سورة الكهف : الآية : ٥٠
[3] سورة طه: الآية: ١٢٥
[4] المؤمنون:١٠٨
[5] طه : ١٢٦

يسمعونه فلما لم ينتفعوا بما قالوا وسمعوه وأبصروه صار بمنزلة المعدوم الذي لا فائدة منه ومن المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه"[1] .

يقول القاسمي رحمه الله : وفصل الخطاب أن الحشر هو الضم والجمع ويراد به تارة الحشر على موقف القيامة لقول النبي صلى الله عليه وسلم " أنكم محشورون إلى الله حفاة عراة "[2] .

وكقوله تعالى " وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾" [3]

وكقوله تعالى " وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ "[4]

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا " وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾"[5] ، ثم قال " ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ " [6]، وهذا هو الحشر الثاني. وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر

---

[1] الكشاف : الجزء الثاني
[2] الكشاف : الجزء الثالث
[3] سورة التكوير: ٥
[4] سورة الكهف: ٤٧
[5] الصافات: ٢٠ ، ٢١
[6] الصافات: ٢٢

الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ولكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بعضه بعضاً " وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ "[1]

" ولاشك أن الآية تحتمل كل هذه المعاني التي ساقها المفسرون فلا مانع من حملها على عمى البصر وعمى البصيرة في الدنيا عن شرع الله وأوامره ونواهيه وتخبط في ظلمات الكفر والضياع مع وضوح شواهد الحق ودواعي الإيمان مما يقود إلى النهاية المؤلمة والخاتمة المفزعة المرعبة وهي العمى في الآخرة وهو جزاء من جنس العمل . ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى "[2]

الإعراض عن الذكر ومعارضة الذكر :

الإعراض عن الذكر ـ كما مر معنا ـ هو الصدود والابتعاد والتولي عن ذكر الله تعالى وهو القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين وما اشتمل عليه من أوامر ونواهي وتوجيهات وتعليمات .

والإعراض عن ذكر الله يجلب لصاحبه نتائج سيئة وعواقب وخيمة ناتجة عن الابتعاد عن دين الله وتعاليمه .

فمن نتائج الإعراض السيئة أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً كما قال سبحانه " وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا "[3] ومن نتائجه السيئة جعل

[1] سورة النساء: الاية: ٨٢
[2] الكشاف : الجزء الثاني : ص: ٢٣٤
[3] الكهف : ٥٧

الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق وعدم الاهتداء أبداً كما قال سبحانه وتعالى مبيناً بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة " إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾"

[1]

ومنها انتقام الله عز وجل من المعرض عن التذكرة كما قال تعالى " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ "

[2]

ومنها كون المعرض كالحمار كما قال تعالى " فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ [3] ومنها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود كما قال تعالى " فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ " [4] ومنها المعيشة الضنك والعمى كما قال تعالى " وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ "[5]

---

[1] سورة الكهف : ٥٧
[2] سورة السجدة: ٢٢
[3] سورة المدثر : ٤٩
[4] سورة فصلت : ١٣
[5] سورة طه : ١٢٤

ومنها سلكه العذاب الصعد كما قال تعالى " وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧ " [1]

ومنها تقييض القرناء من الشياطين كما قال تعالى " وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ " [2]

إلى غير ذلك من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله جلا وعلا :

أما معارضة الذكر فهي بمعنى محاربته والوقوف في طريقه لئلا يصل إلى الآخرين وكل معارض لذكر الله فهو معرض عنه وقد يعرض الإنسان بنفسه عن الذكر ولكنه لا يعارضه فالمعارض للذكر أشد عذاباً وأكبر إجراماً لأنه داخل تحت مسمى الصاد عن ذكر الله ودينه والمحارب له وصد الناس عن دين الله صفة من صفات الكفار وقد وصفهم الله بها في كتابه في أكثر من آية .

قال تعالى :" إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ "[3] وقال سبحانه " إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ

[1] سورة الجن: ١٧
[2] سورة الزخرف: ٣٦
[3] سورة النساء: ١٦٧

ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ "[1]

وقال سبحانه " إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ "[2] .

ووصف الله المنافقين بالصدود عن دين الله صدود بأنفسهم وصد لغيرهم .

قال سبحانه " ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ "[3] فالمنافقون من صفاتهم الصد عن دين الله أي الإعراض بأنفسهم عن طاعة الله وطاعة رسوله وقيل : صدوا وصرفوا ومنعوا الضعفة من الدخول في دين الإسلام واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أساليب صد المنافقين عن دين الله تعويقهم عن الجهاد حيث أخبر الله تعالى عنهم بقوله " قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ "[4]

[1] سورة محمد : ٣٢
[2] محمد : ٣٤
[3] سورة المجادلة: ١٦
[4] سورة الأحزاب :١٨

وقوله " وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ ...إلخ" [1]

وقوله " ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ " [2]

أسباب الإعراض عن ذكر الله

هناك أسباب تؤدي بالمرء إلى الإعراض عن ذكر الله وتدعوه إلى الانصراف عن التعلق بخالقه جل وعلا وتهوى به بعيداً عن سبيل النجاة وطريق الفلاح بل ربما أدت به إلى محاربة الله باستبدال ذكر الله ـ وهو القرآن والسنة وما تفرع عنهما من علوم وأحكام ـ بذكر الشيطان حتى يصير بهذه الصفة نهباً للأهواء والشبهات وتحتوشه الشياطين من كل جانب فتؤدي به إلى الضياع والدمار والهلاك ومن أبرز أسباب الإعراض عن ذكر الله تعالى :

أولا: ضعف التصور الإيماني المتحرك الفاعل مع سلامة العقيدة المستقرة في القلب فتضعف بضعفه مشاعر العبادة وقد ينعدم التصور الإيماني هذا أو يغشى عليه بأفكار ومفاهيم أخرى تسيطر على ساحة التصور فتنعدم مشاعر العبادة وتتوجه حينئذٍ شطر غير الله هائمة تائهة فتدخل بذلك رياح الشرك إلى القلب والنفس .. " أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ".[1]

---

[1] سورة التوبة:٨١
[2] سورة آل عمران : ١٦٨

ثانيا: الكبر والخيلاء فالكبر يدفع إلى جحود الحق والكفر بالنعمة وقد يدفع إلى كراهية المنعم المتفضل بدل حبه وإلى ذمه بدل حمده والثناء عليه وذكره وإلى الإساءة إليه بدل شكره على نعمه وإحسانه . وقد أشار القرآن إلى هذا الانحراف في خلق الإنسان فقال تعالى " إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ " [٢] .

ثالثا: الأمن من عذاب الله وعدم الخوف من عقابه بسبب طول الأمد في النعمة والرخاء مما قد يولد قسوة في القلوب قال الله تعالى " أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ "[٣] . وتواتر النعم على الإنسان ربما ينسيه ربه وذكره وشكره فإذا حلّت به المصائب عاد إلى ربه داعياً بدعاء عريض " وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ " [٤] .

---

[١] سورة الفرقان : ٤٣ ، ٤٤
[٢] سورة العاديات :٦، ٧ ، ٨
[٣] سورة الحديد:١٦
[٤] سورة حم السجدة : ٥١

رابعا: اتباع الشهوات والمطامع الدنيوية العاجلة ونسيان الآخرة وما أعده الله للمؤمنين فيها من النعيم المقيم الذي لا يخالطه كدر وما توعد به الكافرين من العذاب الأليم كل ذلك يدفع المرءإلى الإعراض عن ذكر الله وعن الاشتغال به قال تعالى " كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ "[1] .

خامسا: موت القلب فالقلب الحي حياته ذكر الله واطمئنانه بترديد الأذكار والأدعية " أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ "[2] والقلب الحي يتحرك ويوجل ويخاف عند سماعه لذكر خالقه " إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ "[3].

وقال سبحانه " ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ "[4]

فالوجل والخوف عند سماع ذكر الله من علامات القلب الحي فهذا الوجل والخوف يبعث على الإطمئنان لأن المرء يحس حينئذٍ إنه في رعاية الله خالق الكون ومصرف الأمور ومدبرها الذي بيده مقاليد كل شيء وهو المأمول في السراء والضراء وهذا هو مبعث الإطمئنان لهذا القلب الحي .

---

[1] سورة القيامة : ٢٠،٢١
[2] سورة الرعد : ٢٨
[3] سورة الأنفال : ٢
[4] سورة الحج : ٣٥

إما إذا مات القلب وعلاه الران فإنه لا يدل صاحبه على الخير ولا يوجهه إلى ذكر الله بل إنه يكون من أقوى العوامل التي تصد المرء عن ذكر الله وعن الآخرة وهذا هو الخسران المبين والبوار العظيم عندما تكون علة الإنسان من داخله والقلب كما ثبت في الحديث ملك الأعضاء الذي إذا أصلح صلحت وإذا فسد فسدت فلا غرابة إذن إن كان القلب الذي هذه صفته عائقاً بين صاحبه وبين ذكر الله نسأل الله العافية والسلامة .

سادسا: الذنوب والمعاصي : فهي من أبرز الأمور التي تجعل المرء يعرض عن ذكر ربه بل إنها إذا زادت وكثرت حجبت القلب عن ربه جل وعلا، فالمعاصي سبب الرعب والخوف والجبن والهلع .. فالطاعة حصن الله الأعظم بها يسمو الإنسان إلى مراتب الاطمئنان فالقلوب لا تهدأ إلا في كنف الله وحمى شرعه ولا تعمى بصيرتها وينطمس نورها وتحجب عن العلم الحق والهداية الأبدية إلا في كنف الشيطان ومهاوي وساوسه وضلالاته وشتان بين قلب يتقرب إلى الله حتى يكون معه في كل جارحة وبين قلب يستذله الشيطان بمعاصيه وذنوبه . وفي الحديث الصحيح الذي رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عود ا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى يصير القلب على قلبين أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه "[1] ومعنى مجخياً : مائلاً .

الرفقة السيئة وجلساء السوء :لاشك أن المرء يتأثر بمن يجالس بل إن الجليس يؤثر في صاحبه أكثر من غيره وذلك لما يكون بينهما في الغالب من الألفة والمودة مما يسقط الكلفة بينهما وقد قيل :

[1] صحيح مسلم : ٢١١

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتـــــــدي

وإذا كان المرء يجالس أهل الصلاح والخير والبر فإنه قطعاً سيتأثر بهم وبما يقولون وبما يدور في مجالسهم ومنتدياتهم ولقاءاتهم وهؤلاء يغلب ذكر الله وطاعته على أقوالهم وأفعالهم ومجالسهم وسيتأثر المرء بهم لا محالة .

أما إذا كانت المجالس مجالس لهو وباطل ولغو وإعراض عن ذكر الله بل اشتغال بمعاصي الله وجرأة وإقدام على حرمات الله فلاشك أن المرء سيبتعد عن الذكر والطاعة والعبادة بل إن قلبه سيصاب بالران الذي يغلفه ويطغى عليه ويحجبه عن الحق ويحبب إليه المعاصي ـ عياذاً بالله من ذلك ـ

فالرفقة لها دور كبير في تحبّب المرء لذكر الله وطاعته وملازمته لهذا الشيء .. وأيضاً لها آثارها الواضحة في ابتعاده عن هذا المنهج والطريق وصدق المصطفى صلى الله عليه وسلم عندما مثل الجليس الصالح والجليس السوء بمثال واقعي حيٍّ ملموس في الحديث الذي رواه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة "[1] ، وقد أخبر الحق جل وعلا في كتابه الكريم عن الكافر أنه يدعو بالويل والثبور إذ رأى العذاب وعاين شدة الحساب ويتمنى لو أنه سلم من مصاحبة من أغواه وأضله وعن ذكر الله أبعده وصده فقال سبحانه " وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ

[1] أخرجه البخاري عن أبي موسى الأشعري.

سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ ".[1]

إنه لدليل أكيد وحجة دامغة على ما للصاحب والجليس من أثر واضح في الصد عن ذكر الله وحجب الصديق لصديقه عن الخير فالجليس أثره واضح وتأثيره قوي فلابد من اصطفاءه وحسن اختياره ليكون عوناً للإنسان على البر والفلاح والهدى والصلاح والله أعلم .

هذه بعض الأمور التي تصد المرء عن ذكر الله ودعائه وتجعله ينشغل بالدنيا وزخرفها وحطامها ومغرياتها وملهياتها ولو علم المرء ـ حق العلم ـ ما في ذكر الله من الفوائد وما ينطوي عليه من المصالح في العاجل والآجل لعض عليه بالنواجذ ولحرص كل الحرص على الأخذ بالأسباب المعينة له على المداومة على الذكر والشكر ولقطع جميع العلائق والوشائج بكل سبب يصده عن ذكر الله وعن الصلاة وقراءة القرآن ـ وكلها ذكر لله ـ ولكن النفس والهوى وتزيين الشيطان تغلب على المرء فترديه في المهالك وتقذفه في المصائب والمعاطب نسأل الله السلامة والعافية إنه سميعٌ مجيب .

الآثار التي تنجم عن الإعراض

لاشك أن الإعراض أو الابتعاد عن ذكر الله يجعل المرء يعيش في دوامة من الحيرة والخوف والوجل .. ولا غرابة في ذلك ، فمشاغل الحياة وإيقاعها السريع وصخبها القوي وما فيها من الأكدار والنوائب تجعل هذا الكائن البشري الضعيف لا يصمد أمام ذلك .. وهو عرضة لتلقي جملة من المتاعب والمصائب والنكبات ،لأن هذه هي حال الدنيا .

[1] سورة الفرقان : ٢٧،٢٨،٢٩

طبعت على كدرٍ وأنت تريدها

صفواً من الأكدار والأحزان [1]

وإذا تكالبت الخطوب والنكبات وتوالت الظروف والمدلهات فلا مخرج ـ بإذن الله ـ منها إلا باللجوء إلى خالق هذا الكون ومن فيه ومدبر أحواله ومن بيده مفاتيح الأمور خيرها وشرها حلوها ومرها .. وإذا خالف المرء هذا الناموس وتنكب هذا الطريق وحاد عن هذه السنة تلقفته المشاكل والمصائب ووقع فريسة الأهواء والأمراض النفسية التي تعصف به وتكبله وتحول مساره جذرياً بل ربما أقدم ـ للخروج من دوامة هذه المشاكل ـ على أمورٍ تكون فيها نهايته ونهاية غيره كاللجوء إلى المسكرات والمفترات والمخدرات هروباً من واقعه وابتعاداً عن مصائبه ومشاكله ولكن لا يدري أنه يسير إلى الهاوية برجليه ويتقدم إلى النهاية باختياره ويقدم على حتفه بضلفه فيفسد نفسه وأسرته ويدمر حياته وإذا سلم من ذلك وقع فريسة لأمراض روحية وعقد نفسية كالقلق ، والاكتئاب ، وموت القلب ، ومعيشة الضنك ، وفقدان السعادة ، والحزن ، وضغوط الحياة ، فكأن الدنيا جميعها على رأسه والمشاكل له وحده دون غيره .. وما علم أن الأمر أهون مما يتصور وأن المخرج ـ بإذن الله ـ هين وسهل وصدق الله جل وعلا " وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ " [1].

[1] ديوان الإمام الشافعي رحمه الله

وقال سبحانه وتعالى " وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ " [٢] .

وسأتناول هنا بعض الآثار الناجمة عن الإعراض عن ذكر الله وهي : موت القلب ، معيشة الضنك ، عدم السعادة ، والقلق والاكتئاب .

موت القلب :القلب هو ذلك العضو الصغير في جسم الإنسان له منزلة عظيمة ومكانة عالية رفيعة في حياة الإنسان فليس هو مجرد آلة تضخ الدم وتوزعه على أنحاء الجسم ـ وإن كانت هذه مهمة كبيرة ووظيفة خطيرة ـ إلا أن له منزلة ومكانة أهم من ذلك فهو يتأثر بما يدخل فيه من نور الإيمان واليقين أو ظلمات الجهلوالنفاق والكفر ـ عياذاً بالله من ذلك . يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ " [٣] .

والقلب هو الملك على الأعضاء بصلاحه تصلح وتفلح وبفساده تفسد، وترتكس ففي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"

---

[١] سورة النور: ٥٥
[٢] سورة طه : ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦،١٢٧
[٣] سورة الشعراء: ٨٨، ٨٩

والقلب هو مناط التكليف من العبد ـ لأنه محل العقل في قول بعض أهل العلم ـ وهو محل نظر الله عز وجل ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار بيده إلى صدره "[1]..

ولما للقلب من هذه المكانة استحق أن يكون ملك الأعضاء وسيدها والقائم عليها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ولقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم هذه المنزلة للقلب فكان أكثر ما يقسم به قوله " لا ومقلب القلوب " .

والقلوب كما يقول ابن القيم رحمه الله ثلاثة :

"**القلب الأول:** قلب خال من الإيمان وجميع الخير فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن .

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع فالحرب دول وسجال وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر ومنهم من هو تارة وتارةأخرى .

القلب الثالث :" قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان وانقشعت عنه حجب الشهوات وأقلعت عنه تلك الظلمات فلنوره في صدره إشراق ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به فهو كالسماء التي حرست بالنجوم فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق .. وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبد الملائكة ومستقر التوحيد والمحبة

[1] رواه مسلم

والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها فهو حقيق أن يحرس من كيد العدو فلا ينال منه شيء إلا خطفه "[1].

وفي القلوب فاقة وحاجة لا يسدها إلا الإقبال على الله ومحبته والإنابة إليه والإكثار من ذكره وشكره والثناء عليه وتدبر كتابه والعمل بما فيه . .

والذكر يجلب للقلب الفرح والسرور والراحة ويورث القلب السكون والطمأنينة كما أشار إلى ذلك ربنا جل وعلا بقوله " ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ " [2] .

ومعنى اطمئنان قلوبهم هنا : زوال ما فيها من قلق واضطراب ويكون فيها بدل ذلك الفرح والاستبشار والراحة '' بل إن الذكر هو حياة القلب حقيقة وهو قوت القلب والروح فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته فلا حياة للقلب حقيقة إلا بذكر الله ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية " الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء "[3] .

إذا أعرض الإنسان عن ذكر الله وانشغل بتوافه الدنيا وملهياتها مرض قلبه وربما زاد هذا المرض حتى يطبع على القلب فيظلم ويصبح لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً فإذا تراكمت المعاصي على القلب سلبته العلم والفقه ثم أصيب القلب بوحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها لذة ولا تقاربها ولو اجتمعت لهذا العاصي لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وليس أمرّ على القلب من وحشة الذنب على الذنب .. وفي النهاية يموت القلب وموته هو الطبع عليه والختم

[1] محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ، مؤسسة قرطبة ، ط:٢
[2] سورة الرعد : ٢٨
[3] ابن القيم الجوزية – الوابل الصيب - ص : ٣

كما في قوله جل وعلا في حق المنافقين والكفار " خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ " [1] .

يقول الطبري رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية : " إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها وإذا أغلفتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله عز وجل والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر منها مخلص فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة " نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلّها فكذلك الإيمان لا يصل إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضه خاتمه وحلّه رباطه عنه "[2] وأي مصيبة أعظم من موت القلب فكل جائحة تهون عند هذه الجائحة فإذا كان الله تعالى يقول في كتابه الكريم:-

" لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ "[3]

فالحجارة الصلبة تلين لذكر الله وسماع آياته وما نزل من الحق فكيف بهذا القلب الذي وصل إلى هذا الحد إنه التحجر والتبلد وليس بعد ذلك إلا الموت عياذاً بالله من ذلك .

---

[1] سورة البقرة : ٧
[2] تفسير الكشاف ، الجزء الأوّل
[3] سورة الحشر : ٢١

معيشة الضنك وعدم السعادة

الإقبال على الله والإنابة إليه والرضا به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة والمبتعد عن ذكر ربه ودعاء خالقه والانطراح بين يديه يجازى بضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وغمه وهمه وحزنه وخوفه وهذا أمر لا يرتاب فيه أحد ولا يغالط فيه إلا جاهل بل إن الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية يكتوي بها اللاهون السادرون في غيهم المبتعدون عن ذكر الله ..

يقول بعض العارفين : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً .

وقال آخر : إنه لتمر بي أوقات أقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا أنهم لفي عيشٍ طيب .

فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين، نعم إن الذكر والمداومة عليه هو جنة المؤمن في الدنيا وهو عنوان محبة الله لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره وملك عليه قلبه وعقله ولسانه وإذا صار المرء بهذه الصفة صفت حياته وتملكته السعادة من كل جوانبه لأنه يعيش لله وبالله ومع الله في كل شأن من شؤونه لأن ذكر الله أمر يسير يذكر المرء ربه قاعداً وقائماً ومضطجعاً في السوق والبيت والعمل مسافراً أو مقيماً فيبقى على اتصال بخالقه في كل شأن من شؤونه وعلى كل حال من أحواله ـ إلا في الأحوال التي نهي الإنسان عن ذكر الله فيها ـ وهذه لعمر الله قمة السعادة وغاية الراحة ومن حرمها فقد حرم الخير كله وهو أمر مشاهد معروف ترى شخصاً ـ

ذكراً أو أنثى ـ وقد بسط له في الرزق وأعطي الصحة والقوة والأمن والأمان يتقلب في النعم المختلفة ومع كل ذلك يقول لك : أين السعادة ؟ وما هو مصدرها ؟ وعندما تسأله عن حاله يجيبك بأنه في بؤسٍ وقلق وضنك وشقاء ولا تجد صعوبة في معرفة السبب في كل ذلك إنها ظلمة القلب ومعيشة الضنك التي أخبر الله عنها في كتابه " وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا...إلخ " [1]

القلق والاكتئاب

من أبرز الأمراض التي تصيب المرء وتحلّ به عندما يبتعد عن ربه ويغفل عن ذكره القلق والاكتئاب .

القلق : انفعال عاطفي يتميز بالتخوف والتوجس والترقب بما يصاحب ذلك من تغيرات فسيولوجية وأعراض بدنية وسلوكية ...

" والقلق ظاهرة عامة لا تقتصر على المرضى النفسيين وحدهم وإنما تمر بكل الناس عندما يواجهون ظروفاً معينة والاختلاف بين الأفراد في هذا الأمر يكون عادة في درجة الاستعداد الشخصي وما يترتب عليه من تفاوت بين الناس في مقدار ما يشعرون به من قلق وكذلك في نوع الظروف والأحداث التي تحيط بهم "[2] وبقدر قرب المرء من ربه وتعلقه به أو بعده عنه تكون درجة القلق عنده فالبعيد من ربه خائف مضطرب يتوقع السيء في كل حركة بينما الموصول بربه المرتبط بخالقه يذكره ويسبحه ويحمده ويشكره تهون عنده الأمور ويستعين على المشاكل والمصائب باللجوء إلى خالقها وموجدها ومن بيده حلها فتهدأ نفسه ويزول قلقه بإذن الله .

الاكتئاب : أحد التقلبات المعتادة للمزاج استجابة لموقف نصادفه في حياتنا يدعو إلى الشعور بالحزن والأسى مثل فراق صديق أو خسارة مالية ... والمفهوم الأهم

---

[1] سورة طه : ١٢٤

[2] ملتقى سيدات الكويت الأول - WWW.Q8Yat.com

للاكتئاب هو وصفه كأحد الأمراض النفسية المعروفة ويتميز بوجود مظاهر نفسية وأعراض جسدية . والقلق والاكتئاب من الآثار الظاهرة لمن انقطعت صلته بربه وتعلق بحبال غيره .. ذلك أن الله تعالى قدّر أن الراحة النفسية وسكينة النفس والحياة الطيبة لا تحصل إلا بالإيمان والعمل الصالح والتعلق بالله عز وجل قال سبحانه" مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ " [1] .

وهذا وعد من الله تعالى أن الحياة الطيبة لا تحصل إلا بالإيمان والعمل الصالح فهو وقاية أكيدة من آثار ضغوط الحياة ومعين لمن تسمك به على مواجهتها والتعايش معها .. وعلى قدر الإيمان تكون الاستجابة للضغوط .. فإن قوى الإيمان والاتصال بالله قلّت الاستجابة لهذه الضغوط وكلما نقص إيمان الشخص وابتعد عن الله كان قلقه وهمه أكثر من غيره .

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله " ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله فإن لذلك تأثيراً عجيباً في انشراح الصدر وطمأنينته وزوال همه وغمه قال تعالى " إلا بذكر الله تطمئن القلوب " فلذكره أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره "[2] .

يقول الأستاذ عبدالعزيز الحسيني : " وقد تدبرت أحوال بعض المطمئنين عن سر هذا الاطمئنان الذي يعيشونه بعيداً عن آثار ضغوط الحياة وأكدارها فوجدت أنه لا يميزهم عن غيرهم سوى شدة تعلقهم بكتاب الله وكثرة قراءتهم له حتى أصبح

[1] سورة النحل : ٩٧
[2] عبد الرحمن بن ناصر السعدي – تيسير الكريم الرحمن

أنيسهم وجليسهم .. وقد حدثني أحدهم بأنه لم تمر به مشكلة إلا ويرجعها غالباً إلى انشغاله عن ورده اليومي لأمرٍ طرأ عليه نسياناً أو انشغالاً "[1].

يقول سيد قطب رحمه الله عند تفسيره لقول الله عز وجل فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ " [2] .

" والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقاً في المتاع فهذا المتاع ذاته شقوة . شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة وما من متاع حرام إلا وله غصة تعقبه وعراقيل تتبعه وما يضل إنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء .. ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود " ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا " والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه ضنك الحيرة والقلق والشك ضنك الحرص والحذر ، الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت ، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على ما يفوت . وما يشع القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ... إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة . والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان " . وهكذا تكون حياة من ابتعد عن ذكر الله هم وحزن وقلق واكتئاب وضنك وشقاء هذا في عاجل الدنيا

[1] الكشاف : الجزء الثلث
[2] سورة طه : ١٢٣، ١٢٤

فكيف بما يكون في الآخرة ، نسأل الله العافية والسلامة إن العاقل الفطن من يسعى إلى السلامة ويحصن نفسه بما ينفعها ويفيدها ويغذي عقله وروحه بما يكون له زاداً في الدنيا والآخرة وصدق الباري جل وعلا إذ يقول " ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ "[1] .

[1] سورة الرعد : ٢٨

الفصل الثالث

الأمثال النبوية

ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية الناجحة، يحث المُرَبِّي والمعلِّم من خلاله النفوس والعقول على فعل الخير والبِر, ويدفعها إلى الخُلُق والفضيلة، ويحجزها عن الشر والمعصية، وهو أسلوب استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم وتربية أصحابه رضوان الله عليهم في أحداث ومواقف متعددة, لما يحمله من سرعة إيصال المعنى المراد، والذي من خلاله تغرس في النفس القيمة التربوية، ويستقر في العقل المعنى المطلوب, والأمثلة الدالة على ذلك من السيرة النبوية كثيرة، ومنها:

الدنيا

في بعض المواقف كان يكفي النبي صلى الله عليه وسلم أن يرد رداً مباشراً على تساؤلٍ أو استفسار وُجِّه إليه من أحد أصحابه، لكنه صلوات الله وسلامه عليه آثر في بعض المواقف ضرب المثل رداً على ذلك.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال : ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالسوق، داخلاً من بعض العالية، والناس كنفتيه (عن جانبيه) فمر بجدي أسك (مقطوع الأذنين) ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال :أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو

[1] رواه الترمذي وصححه الألباني

كان حيا كان عيبا فيه، لأنه أسك، فكيف وهو ميت ؟ فقال :فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم [1]

ومع هذا المثل من النبي صلى الله عليه وسلم للدنيا فقد ربَّى وعلَّم أصحابه أن تكون نظرتهم للدنيا نظرة متوازنة، تَزْهد فيها دون أن تترك إعمارها، فليس الزهد وعدم التعلُّق بالدنيا داعياً إلى خرابها، بل يعمرها المسلم دون أن يُفْتَنَ بها، ويحاول جمعها من حلال أو حرام، لذلك يقول صلى الله عليه وسلم: إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل[2]

خاتم الأنبياء

اصطفى الله من بين عباده خَلْقا هم أشرفهم حسباً ونسباً، وأرفعهم مقاماً وقدْراً، وأحسنهم خَلقاً وخُلُقاً، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم أفضلهم وخاتمهم، قال الله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[3]، وقد مَثَّل النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتعاقب إرسالهم إلى الناس بالبيت الذي أُسِّسَت قواعده، ورُفِع بنيانه, وقد اعتنى صاحبه عناية شديدة بعمارته وتزيينه حتى بلغ الغاية في الحسن والجمال, ولم يبق له إلا موضع حجر في زاوية به يتم هذا البناء ويكتمل حسنه وجماله, فشبه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وما بعث به من الرسالة الخاتمة, بهذا الحجر الذي اكتمل به هذا البنيان, فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال) :مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها، ويتعجبون، ويقولون: لولا موضع اللبنة.[4]

قال ابن هبيرة " :شبههم (الأنبياء) صلى الله عليه وسلم ببناء دار بُنِيَت حتى لم يبق فيها إلى موضع لبنة، حتى إن تلك اللبنة إذا وُضِعَت لم يبق فيها محل لأن يُعمل فيها

---

[1] رواه مسلم
[2] رواه أحمد وصححه الألباني
[3] سورة الأحزاب : ٤٠
[4] رواه البخاري

شيء، فكان خبر النبي صلى الله عليه وسلم هذا مُشْعِرَاً أنه ختم الأنبياء كما ختمت تلك اللبنة ذلك البناء، فلم يبق بعده لبانٍ عمل، لأنه صلى الله عليه وسلم تمم البناء[1]."

وقال ابن حجر" :وفي الحديث ضرب الأمثال للتقريب للأفهام."

المؤمنون جسد واحد :

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) :مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (رواه مسلم) قال ابن الجوزي" :إنما جعل المؤمنين كجسد واحد لأن الإيمان يجمعهم كما يجمع الجسد الأعضاء، فلموضع اجتماع الأعضاء يتأذى الكل بتأذى البعض وكذلك أهل الإيمان، يتأذى بعضهم بتأذي البعض."

وقال النووي" :وفيه جواز التشبيه وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام."

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه سمِع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطاي "[2] .قال ابن العربي" :وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنبا إلا أسقطته وكفرته[3]."

فرح الله بتوبة عبده

بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يفرح بتوبة عبده المؤمن ـ فرحاً يليق بجلاله وكماله، ولا يشبه فرح المخلوقين ، وضرب المثل على ذلك بمثل رجل سار في صحراء مقفرة، شديد الحر، ضاعت منه راحلته، وفيها متاعه وطعامه

[1] أبو مظفر يحي بن محمد بن هبيرة - الإفصاح عن معاني الصحاح
[2] رواه البخاري
[3] محي الدين ابن عربي - فصوص الحكم

وشرابه، حتى استيأس فنام موقناً بالموت، فاستيقظ فوجد وسيلة سيره وسفره (راحلته) وفيها متاعه وطعامه وشرابه، ففرح لذلك فرحاً شديداً، فالله عز وجل أفرح بتوبة عبده المؤمن من هذا الرجل، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال) :للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ في أرضِ دوِّيَّةٍ مَهلَكةٍ، معه راحلتُه، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطشُ، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموتَ، فوضع رأسَه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلتُه وعليها زادُه طعامه وشرابُه، فاللهُ أشدُّ فرحاً بتوبةِ العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده (رواه مسلم.)
قال ابن حجر" :وقال القرطبي :هذا مثل قُصِدَ به بيان سرعة قبول الله توبة عبده التائب، وأنه يقبل عليه بمغفرته، ويعامله معاملة من يفرح بعمله[1]."

قراءةالقرآن:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، مثل الأترجة نوع ثمر من أفضل الثمار، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن، مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مُر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مُر "[2]

قال النووي" :قوله صلى الله عليه وسلم :مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن إلى آخره فيه: فضيلة حافظ القرآن، واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد". وقال ابن عثيمين"[3] :هذا الحديث ساقه المؤلف النووي رحمه الله في باب فضل قراءة القرآن في رياض الصالحين، في بيان أحوال الناس بالنسبة للقرآن، أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب أمثلة للمؤمن والمنافق ..فالمؤمن الذي يقرأ القرآن كله خير في ذاته

[1] الجامع لأحكام القرآن - القرطبي
[2] رواه مسلم
[3] محمد بن صالح العثيمين – شرح الأربعين النووية

وفي غيره فهو كالأترجة، لها رائحة طيبة ذكية، وطعمها طيب، أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فهو كمثل التمرة طعمها حلو ولكن ليس لها رائحة ذكية كرائحة الأترجة."

الأمثال القرآنية في الأحاديث

إنّ الأمثال القرآنية بما أنّها مواعظ وعبر قد ورد الحث على التدبّر فيها عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، ننقل منها ما يلي :

١.قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :قد جرّبتم الأمور وضرّستموها ، ووُعظتم بمن كان قبلكم ، وضُربت الأمثال لكم ، ودعيتم إلى الأمر الواضح ، فلا يصمّ عن ذلك إلا أصمّ ، ولا يعمى عن ذلك إلا أعمى ، ومَن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة [١].

٢ .وقال علي رضي الله عنه: كتاب ربّكم فيكم ، مبيّناً حلاله وحرامه ، وفرائضه وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ، ورخصه وعزائمه ، وخاصّه وعامّه ، وعبره وأمثاله [٢].

٣ .قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :نزل القرآن أرباعاً : ربع فينا ، وربع في عدوّنا ، وربع سنن وأمثال ، وربع فرائض وأحكام .

٤ .روى الإمام الصادق عليهالسلام عن جده أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال لقاض هل تعرف الناسخ من المنسوخ ؟ ، قال : لا ، قال : فهل أشرفت على مراد الله عزّ وجل في أمثال القرآن ؟ ، قال : لا ، قال : إذاً هلكت وأهلكت. والمفتي يحتاج إلى معرفة معاني القرآن وحقائق السنن وبواطن الإشارات والآداب والإجماع

[١] نهج البلاغة
[٢] نفس المرجع

والاختلاف والإطّلاع على أُصول ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه ، ثم حسن الاختيار ، ثم العمل الصالح ، ثم الحكمة ، ثم التقوى ، ثم حينئذٍ إن قدر[1]

٥ .قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :سمّوهم بأحسن أمثال القرآن ، يعنى : عترة النبي صلىالله‌عليه وآله وسلم ، هذا عذب فرات فاشربوا ، وهذا ملح أجاج فاجتنبوا .

٦ .وقال علي بن الحسين عليهم السلام في دعائه عند ختم القرآن :

"اللّهمّ انّك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلته ـ إلى أن قال : ـ اللّهم اجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنساً ، ومن نزعات الشيطان وخطرات الوساوس حارساً ، ولأقْدامِنا عن نقلها إلى المعاصي حابساً ، ولألسنتنا عن الخوض في الباطل من غير ما آفة مخرساً ، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجراً ، ولما طوت الغفلة عنّا من تصفح الاعتبار ناشراً ، حتى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه وزواجر أمثاله التي ضعفت الجبال الرواسي على صلابتها عن احتماله"[2]

٧. .وقال علي بن الحسين عليهماالسلام في مواعظه : فاتّقوا الله عباد الله ، واعلموا أنّ الله عزّ وجلّ لم يحب زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه ولم يرغّبهم فيها وفي عاجل زهرتها وظاهر بهجتها ، وإنّما خلق الدُّنيا وخلق أهلها ليبلوهم فيها أيّهم

أحسن عملاً لآخرته ، وأيم الله لقد ضرب لكم فيه الأمثال وصرّف الآيات لقوم يعقلون ولا قوّة إلاّ بالله .

٨ .وقال الإمام الباقر عليه‌السلام لأَخيه زيد بن علي : هل تعرف يا أخى من نفسك شيئاً مما نسبتها إليه فتجيئ عليه بشاهد من كتاب الله ، أو حجّة من رسول الله ، أو

[1] نهج البلاغة
[2] محمد بن يعقوب الكليني – الكافي – ج٢ – ص: ٥٦٨

تضرب به مثلاً ، فانّ الله عز وجلّ أحلَّ حلالاً وحرّم حراماً ، فرض فرائض ، وضرب أمثالاً ، وسنَّ سنناً .

٩ .روي الكليني عن إسحاق بن جرير ، قال :سألتني امرأة أن استأذن لها على أبي عبد الله عليه السلام فأذن لها ، فدخلت ومعها مولاة لها ، فقالت : يا أبا عبد الله قول الله عزّ وجلّ : زَيتُونةٍ لا شَرْقيةٍ وَلا غَرْبية ما عني بهذا ؟ فقال : أيّتها المرأة إنّ الله لم يضرب الأمثال للشجر إنّما ضرب الأمثال لبني آدم [١].

١٠" .روى داود بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال : يا داود إنّ الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا وجعلنا أُمناءه وحفظته وخزّانه على ما في السماوات وما في الأرض ، وجعل لنا أضداداً وأعداءً ، فسمّانا في كتابه وكنّى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه ، وسمّى أضدادنا وأعداءنا في كتابه وكنّى عن أسمائهم وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه" [٢] .

هذه عشرة كاملة من كلمات أئمّتنا المعصومين حول أمثال القرآن .

وقد حازت الأمثال القرآنية على اهتمام المفكرين ، فذكروا حولها كلمات تعرب عن أهمية الأمثال ومكانتها في القرآن :

١." قال حمزة بن الحسن الاصبهاني: لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء النظائر ، شأن ليس بالخفي في إبراز خفيّات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق ، تريك المتخيَّل في صورة المتحقق ، والمتوهَّم في معرض المتيقن ، والغائب كأنّه مشاهد ، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ ، فإنّه يؤثر في القلوب ما لا يؤثّر وصف الشيء في نفسه ولذلك أكثر الله

[١] نفس المرجع
[٢] العلامة المجلسي – بحر الأنوار – ج ٢٤ – ص: ٣٠٣

تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمّى سورة الأمثال وفشت في كلام النبي صلىالله‌عليه وآله وسلم وكلام الأنبياء والحكماء."[1]

٢ .قال الإمام أبو الحسن الماوردي : من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والنّاس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال ، وإغفالهم الممثَّلات ، والمثل بلا ممثَّل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام .

[1] نفس المرجع

الفصل الرابع

التمثيل بالحشرات والحيوانات في القرآن الكريم.

قال سبحانه: إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأمّا الّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبّهِمْ وَأمّا الّذينَ كَفَروا فَيَقُولُونَ مَاذَا أرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إلاّ الْفاسِقِينَ * الَّذينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرضِ أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُون.[1]

تفسير الآيات:الحياء تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من تخوّف مايعاب به ويُذمّ، يقال: فلان يستحي أن يفعل كذا، أي أنّ نفسه تنقبض عن فعله.

فعلى هذا فالحياء من مقولة الانفعال، فكيف يمكن نسبته إلى الله سبحانه مع أنّه لا يجوز عليه التغيّر والخوف والذم؟

الجواب: إنّ إسناد الحياء كإسناد الغضب والرضا إلى الله سبحانه، فإنّها جميعاً تسند إلى الله سبحانه متجردة عن آثار المادة، ويؤخذ بنتائجها، وقد اشتهر قولهم: "خذوا الغايات واتركوا المبادئ "فالحياء يصدُّ الإنسان عن إبراز ما يضمره من الكلام، والله سبحانه ينفى النتيجة، أي لا يمنعه شيء عن إبراز ما هو حق، قال سبحانه: (فَإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسينَ لِحَدِيثٍ إنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِ مِنَ الحَقّ)[2].

وأمّا ضرب المثل فقد مرّ الكلام فيه، وقلنا: إنّ لاستخدام كلمة "ضرب المثل" في التمثيل بالأمثال وجوهاً:

منها: أنّ ضرب المثل في الكلام يذكر لحال ما يناسبها، فيظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً، وهو مأخوذ من ضرب الدراهم، وهو حدوث أثر خاص فيها، كأن

---

[1] سورة البقرة
[2] سورة الأحزاب : ٥٣

ضرب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره في قلبه، ولا يظهر التأثير في النفس بتحقير شيء وتقبيحه إلاّ بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيره ونفور النفوس منه.

البعوضة حيوان حقير يشبه خرطومه خرطوم الفيل، أجوف وله قوّة ماصة تسحب الدم، وقد منح الله سبحانه هذا الحيوان قوة هضم ودفع كما منحه أُذناً وأجنحة تتناسب تماماً مع وضع معيشته، وتتمتع بحساسية فائقة، فهي تفر بمهارة عجيبة حين شعورها بالخطر، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات. وقد اكتشف علماء الحيوان موَخراً انّ البعوضة قادرة على تشخيص فريستها من مسافة تقرب عن ٦٥ كيلومتراً.[١]

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في حقّها: "كيف ولو اجتمع جميع حيوانها، مناطيرها وبهائمها، وما كان من مراحها وسائمها، وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أُممها وأكياسها، على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيّرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت، ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنّها مقهورة، مقرة بالعجز عن إنشائها، مذعنة بالضعف عن إفنائها"[٢].

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق بشأن خلقة هذا الحيوان الصغير: "إنّما ضرب الله المثل بالبعوضة على صغر حجمها خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره وزيادة عضوين آخرين، فأراد الله سبحانه أن ينبّه بذلك الموَمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعته"[٣].

وعلى كلّ تقدير فالآية بصدد بيان أنّ الملاك في صحة التمثيل ليس ثقل ما مثّل به أو كبره، فلا التمثيل بالبعوضة عيب ولا التمثيل بالإبل والفيل كمال، وإنّما الكمال

---

[١] الشيخ جعفر السبحاني – الأمثال في القرآن الكريم
[٢] نهج البلاغة : الخطبة : ١٨٦
[٣] الشيخ جعفر السبحاني – الأمثال في القرآن الكريم

أن يكون المثل مبيناً لحقيقة وواقعة غفل عنها المخاطب من دون فرق بين كون الممثل صغيراً أو كبيراً.

وبعبارة أُخرى: إذا كان الغرض التأثير فالبلاغة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره بحقيرها ولما يراد التنفير بما اعتادت النفوس النفور منها، فالملاك هو كون المثل مفيداً لما يريد المتكلم تحقيقه، من غير فرق بين حقير الأشياء وكبيرها، وهو سبحانه يشير إلى ذلك المعنى بقوله: (إنَّ الله لا يَسْتَحْيي أن يضربَ مثلاً ما بَعوضة) بل فوقها في الصغر كالجراثيم التي لا ترى إلاّ بالمجهر، كما تقول: فلان لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه أي مما فوقه في القلة.

ولو أُريد ما فوقه في الكثرة يقول مكانه "فضلاً عن الدرهم والدرهمين".

فما في كلام بعض المستشرقين من أنّ الصحيح أن يقول "فما دونه" غير تام. للفرق بين قوله: "فما فوقه" وقوله "فضلاً" و الأوّل بقرينة المقام بمعنى فما فوقه في الصغر والحقارة لا بمعنى "فضلاً".

وربما تفسر الآية بأنّه لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها في الكبر، ولكن الأوّل هو الأوفق لمقصود المتكلم . كما يقال عند لوم المتجرى: بأنّك تقترف جريمة لأجل دينار بل فوقه، أي نصف دينار، والمراد من الفوقية هو الفوقية في الحقارة.

وقد أورد الزمخشري على نفسه سؤالاً، وهو: كيف يضرب الله المثل لما دون البعوضة وهي في النهاية في الصغر؟ ثمّ أجاب: "إنّ جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مثلاً للدنيا، وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاد إلاّ تحركها فإذا سكنت، فالسكون يواريها، ثمّ إذا لوّحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة، وتفاصيل خلقتها، ويبصر بصرها، ويطلع على

ضميرها، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون."[1]

وقال البيضاوي: "لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل عقب ذلك ببيان حسنه، وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر، والخسة والشرف، دون الممثل، فانّ التمثيل إنّما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له، ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه، فانّ المعنى الصرف إنّما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأنّ من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء، فيمثل الحقير بالحقير كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان المثل أعظم من كلّ عظيم، كما مثل في الإنجيل على الصدور بالنخالة، والقلوب القاسية، بالحصاة، ومخاطبة السفهاء، بإثارة الزنابير، وجاء في كلام العرب: أسمع من قراد، وأطيش من فراشة، وأعز من مخ البعوض"[2].

وربّما يتصور أنّ التمثيل بالأشياء الحقيرة الخسيسة لا يليق بكلام الفصحاء، وعلى هذا فالقرآن المشتمل على النمل والذباب والعنكبوت والنحل لا يكون فصيحاً فضلاً عن كونه معجزاً.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر أنّ الناس أمام الأمثال على قسمين:

أ: الموَمنون: وهم الذين قال سبحانه في حقّهم: (فَأمّا الّذين آمَنُوا فَيَعْلَمُون انّهُ الحَقُّ مِنْ رَبّهِمْ).

ب: الكافرون: وهم الذين قال سبحانه في حقّهم:"وَأمّا الّذين كَفَروا فَيَقُولُونَ ماذا أرادَ اللهُ بِهذا مثَلاً". والظاهر أنّ قولهم "أراد اللّهُ" كان على سبيل الاستهزاء بادّعاء الرسول أنّ المثل وحي منزل من الله ، وإلاّ فانّ الكافرين والمنافقين كانوا ينكرون الوحي أصلاً.

---

[1] الزمخشري : الجزء الأوّل

[2] عبد الله محمد الشيرازي البيضاوي – أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى بتفسير البيضاوي – دار المعرفة – بيروت ، لبنان

ولا غرو في أن يكون شيء سبب الهداية لطائفة وسبب الضلال لطائفة أُخرى، وما هذا إلاّ لأجل اختلاف القابليات، فمن استعد لقبول الحقّ والحقيقة فتصبح الآيات الإلهية سبب الهداية، وأمّا الطائفة الأخرى المعاندون الذين صمّوا مسامعهم عن سماع كلمة الحق وآياته فينكرون الآيات ويكفرون بذلك.

ثمّ إنّ الظاهر أنّ قوله سبحانه: "يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين" من كلامه سبحانه، ولا صلة له بكلام المنكرين، بل تم كلامه بقوله: (بها مثلاً) وهو انّ الأمثال تؤثر في قوم دون قوم.

ثمّ إنّه يعلّل إضلال غير المؤمنين بفسقهم ويقول: (وَما يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسقين)، والفسق: عبارة عن خروج النواة من التمر، وفي الاصطلاح: من خرج عن طاعة الله ، سواء أكان مسلما متجرياً أو كافراً فاسقاً.

وقد أطنب المفسرون الكلام في مفاد الجملة الأخيرة أعني: "يُضِلُّ به كثيراً وَيَهْدي بهِ كَثيراً" فربما يتوهم أنّ الآية بصدد الإشارة إلى الجبر، فحاولوا تفسير الآية بشكل يتلاءم مع الاختيار، وقد عرفت أنّ الحقّ هو أنّ الآية بصدد بيان أنّ المواعظ الشافية والكلمات الحِكَمية لها تأثير معاكس فيؤثر في القلوب المستعدة تأثيراً إيجابياً وفي العقول المنتكسة تأثيراً سلبياً.

الفصل الخامس

المناظر الطبيعية في التمثيل القرآني

تناول القرآن الكريم الطبيعة في كثير من آياته، حيث عرض كثيراً من مشاهدها، ولفت النظر إلى كثير من دقائقها، ووضع الأيدي والأنظار على ما خفي من جمالها، وسمح للعين والفكر أن ينساح في ظلال تلك المناظر الخلابة التي تتعامل مع حواس الإنسان كلها في آن واحد، وإذا بالإنسان مشدود كله إلى ذلك الجمال الذي أبدعه الله تعالى .

وإذا كان القرآن الكريم - وهو المنهج الإلهي - يأخذ بيد الإنسان ليعرفه إلى الله الواحد، فإن هذا القرآن نفسه - وهو كتاب الله - يلفت النظر إلى كتاب آخر منظور هو "الكون "حيث يكون التعرف إلى الله في الميدان النظري المشاهد بعد الميدان القلبي والفكري، وبهذا تكون المعرفة ملء النفس الإنسانية كلها وفي جميع زواياها، وبهذا تكون الإضاءة عامة، ولا يبقى شيء في الظل لم يصل إليه نور الهداية .

والقرآن الكريم إذ يتناول "المشهد الطبيعي "أو "المشهد الكوني "فإنما يتناوله لغرض من الأغراض.. ومع ذلك فالهدف والغاية لا ينفيان أن يكون ذلك المشهد هو الحقيقة.. الحقيقة الكونية، والحقيقة العلمية، والحقيقة الجمالية، فلا تهمل جوانب لإبراز جانب.. كل هذا يعرضه القرآن بالأسلوب الجمالي البديع، وكأن الصياغة القرآنية لم يكن همها إلا الإعجاز البياني، وبهذا كان الإعجاز القرآني إعجازاً في كل الاتجاهات .

ونحن في حديثنا هنا عن الطبيعة إنما نهدف التعرف إلى الجانب الجمالي منها.

وهذا لا يمنع أن تكون هذه المعرفة في ظل الغاية التي هدف النص إليها وهو يعتمد المشهد الجمالي وسيلة .

وإذا ذهبنا نتتبع الأغراض القرآنية التي كانت خلف مشاهد الطبيعة ألفيناها تسير في اتجاهات شتى لتلتقي جميعاً في ساحة العقيدة. فالمشهد الطبيعي في القرآن يأتي :

- إما دلالة على الألوهية .
- وإما دلالة على الوحدانية .
- وإما برهاناً على البعث .
- وقد يكون تذكيراً بنعم الله تعالى على الإنسان .
- وقد يكون بياناً لعلاقة الطبيعة بالله الخالق.. وهي علاقة العبودية بالألوهية .
- وقد يكون بياناً لعلاقة الطبيعة بالإنسان وهي علاقة التسخير له - بأمر الله – من جانب، وعلاقة الأخوة في العبودية لله تعالى من جانب آخر.

من خواص المشهد القرآني :

وإذا كان هناك من أمر ينبغي التأكيد عليه أو لفت النظر إليه فهو "الحركة "التي يمتاز بها المشهد القرآني، فهو ليس لوحة جامدة باردة، وإنما هو حركة الحياة تمد إلى كل شيء.. حتى فيما يبدو لحواسنا أنه لا حركة له - لأنه من الجمادات - يعرضه القرآن الكريم من خلال الحركة الحية الفاعلة، فالأحجار تتشقق ليخرج منها الماء، والجدار يريد أن ينقض، والجبال تمر مر السحاب ...صنع الله الذي أتقن كل شيء .

وقد تكون هذه "الحركة "غير منظورة - لأنها حركة قلبية أو نفسية - فالأرض تصل في درجة سكونها إلى الخشوع في محراب العبودية لله تعالى، والخشوع سكون ظاهر، ولكنه حركة وعمل واتجاه.. يحتاج من التركيز القلبي والنفسي ما لا يحتاجه العمل الظاهر .

وتصل هذه الحركة إلى ذروتها حين تشتمل على النوعين، فتكون حركة غير منظورة ثم ينتج عنها حركة منظورة ونجد هذا واضحاً في الأحجار التي تهبط من خشية الله .إنه هبوط - وهو حركة ظاهرة - نتج عن الخشية وهي حركة غير منظورة .

إتجاه المشاهد الطبيعية في القرآن :

فهي مشاهد إجمالية - تارة - تتناول "الكليات "حيث تلفت الآية النظر إليها، ثم تترك المتأمل يعيش المشهد، فيمعن النظر ويستخرج العلاقة، ويقف على الموطن الجمالي.. فهي - بتعبير آخر - تفتح الباب وتسمح له بالدخول، وتترك له حرية التجوال... وقد تأخذ بيد المشاهد - أحياناً - ليكون تركيزه على جانب واحد، حيث توجَّه الأضواء إليه ..

وهناك مشاهد تفصيلية، حيث يتبين لنا ما خفي علينا، وتتفتح أعيننا على ما غفلنا عنه، أو ما لم ننتبه إليه... فنجد أنفسنا أمام الجزئيات، وتتضح لنا العلائق والوشائج .

ونظل هنا وهناك أمام المشهد "الفسيح "الذي تتقاصر الحدود أن تحيط به، كما تتقاصر العين عن أن تسيطر عليه، فهي تعيش فيه وتنتقل هنا وهناك، ولكنها لا تهيمن عليه، وهذه هي الخاصية الثانية للمشهد الطبيعي في القرآن إنها خاصية الاتساع.

Shafeeq Rehman, P. “The Parables and Similes of the Holy Qur’an and its impacts in the Arabic literature with special reference toThafseer Al Kasha’f”.Thesis, Department of Arabic, Farook College, University of Calicut, 2018.

الباب الثالث

تفسير آيات الأمثال في "الكشاف" للزمخشري

الفصل الأول :- الزمخشري المفسر البلاغي والأديب

الفصل الثاني : - ميزة تفسير "الكشاف" في بيان آيات الأمثال

الفصل الثالث : - النواحي التي ركز عليها الزمخشري في تفسير الآيات القرآنية

الفصل الرابع : - منهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الصريحة

الفصل الخامس : منهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الكامنة

الفصل الأول

الزمخشري المفسر البلاغي والأديب

لمحة إلى حياة الزمخشري : -

هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، وهو من أصحاب المؤلفات الباهرة والتصانيف الفائقة ، البارع في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني والبيان وغيرها.

وهو المولود في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة (٤٦٧) بزمخشر، وكان الزمخشري غير متزوج ، عاش أعزب ، لأنه أحب الانفراد في طلب العلم ، وقد فارق الزمخشري الدنيا ليلة عرفة سنة ٥٣٨ ثمان وثلاثين وخمسمائة بجرجانية بعد رجوعه من مكة رحمه الله تعالى.

وقد اتبع الزمخشري طريقة خاصة في تفسير القرآن الكريم ، بحيث إنه فسّره بمنهج بلاغي ممتاز ، ومن تصانيفه البديعة تفسيره المسمى " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " ، وكذلك من مؤلفاته أساس البلاغة في اللغة ، ولم يصدر كتاب مثله من قبل ، وربيع الأبرار ، ونصوص الأخبار ، ومتشابه أسامي الرواة ، والنصائح الكبار ، والنصائح الصغار ، وضالة الناشد ، والرائض في علم الفرائض ، والمفصل في النحو وقد شرحه كثير من العلماء المشهورين ، والأنموذج في علم العربية ، والمفرد والمؤلف في المسائل النحوية ، ورؤوس المسائل الفقهية ، والمستقصى في الأمثال العربية ، والبدور السافرة في الأمثال السافرة ، والكتاب المسمى الجليل بديوان التمثيل ، وشقائق النعمان في حقائق النعمان ، وشافي العي من كلام الشافعي ، والقسطاس في علم العروض ، ومعجم الحدود ، والمنهاج في الأصول ، ومقدمة الأدب في اللغة ، وديوان الرسائل ، وديوان الشعر والرسائل الناصحة ، والأمالي الواضحة في كل فنّ، وغيره من الكتب.

وقد سافر إلى مكة وجاور بها زمانا فصار يسمى بجار الله ، وكان هذا الاسم علما عليه ، واشتهر عنه أنّ إحدى رجليه كانت ساقطة وأنه كان يمشي بشق خشب يساعده.

ولمّا دخل الزمخشري ببغداد واجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني سأله عن سبب قطع رجله " فقال : دعاء الوالدة ، وذلك أنّي كنت في صباي أمسكت عصفورا وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي فأدركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط ، فتألمت والدتي لذلك وقالت : قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله ، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى أطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلي وعملت عليّ عملا أوجب قطعها"[1]. .

الزمخشري المفسر:

ألف تفسيره المشهور " الكشاف" خلال رحلته إلى مكة ، وزار مكة مرّتين وأدى الحج خير أداء .

وقد صنّف تفسيره بطلب من تلاميذه ، حيث يقول في تفسيره : " ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية ، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية ، كلما رجعوا إلي في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا في الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن(حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فاستعفيت ، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد"[2].

[1] الكشّاف ، الجزء الأول
[2] الكشّاف ، الجزء الأول

الزمخشري البلاغي والأديب:

والزمخشري يشير إلى أهمية علم المعاني وعلم البيان في تفسير آيات القرآن حيث يقول في مقدمة تفسيره : " فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بزّ أهلها في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، وان كان من ابن القرية أحفظ ، وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان"[1]

ويرى الزمخشري أن العلماء لا ينهضون نهوضا حقيقيا بعلم التفسير إلاّ إذا أجادوا علمي المعاني والبيان ، وهو يشير إلى أهمية علم البلاغة في تفسير القرآن الكريم بفنونه المختلفة ، وقد ركّز في تفسيره على المناحي البلاغية ، والتمس المفهوم اللغوي لجميع الآيات القرآنية .

وقد نظر إلى القرآن الكريم بمنظار يرى فيه جمال النظم القرآني بواسطة علم البلاغة كما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز " و "أسرار البلاغة " ، أخذ الزمخشري برأيه في بيان جمال الآيات في القرآن الكريم.

وقد كثر استشهاده بالشعر في تفسير الآيات، وفسّرها بالعبارات الموجزة ، مثلا في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ

[1] الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الأول ، صفحة :١٦ ، دار الفكر ، بيروت ، ٢٠٠٨ م

عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ

أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ [1]

وهو يقول : وهو أنّهم (المنافقون) لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل لمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد والضلالة التي اشتروها ، وطبع على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات ، تنكير النار للتعظيم ، كانت حواسهم سليمة ، ولكن لمّا سدوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم ، جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله :

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا [2]

وكذلك لا يعتمد كثيرا على بيان معاني مفردات الآية كما يعمل سائر المفسرين ، في كثير من عبارات القرآن الكريم ، وهو لا يأتي بالتفسير بالمأثور إلا قليلا ، وتأثر به كثير من المفسّرين المشهورين أمثال " الرازي " و " الحيّان" وكثر الحواشي على تفسيره .

وفيما يلي بعض كتب التفاسير المؤثرة وأصحابها بالكشاف للزمخشري :

- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان - الحسن بن محمد القمّي النيسابوري
- البحر المحيط - أبو حيّان الأندلسي
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوي
- مدارك التنزيل – الإمام النسفي
- روح المعاني - شهاب الدين الآلوسي

[1] سورة البقرة : الآيات : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩
[2] الكشاف : صفحة : ٢٠٣ ، ٢٠٤

الفصل الثاني

ميزة تفسير "الكشاف"في بيان آيات الأمثال

أ. خطوة الزمخشري في تفسير آيات الأمثال

عندما تأملت تفسير الزمخشري للآيات التي فيها الأمثال، فوجدت فيه الخطوة التي تسير عليها الزمخشري. كما أذكره فيما يلي مع ذكر الأمثلة لكل منها :

. كان الزمخشري قبل أن يفسر الأية التي فيها الأمثال يبين مناسبة الأية بالأية السابقة، كقوله عند ما أراد أن يفسر الأية مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا.

فقال : لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان. ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد.

وكان الزمخشري يبحث عن الأمثال من كل وجوه. كمعنى الأمثال وفوائدالأمثال وعما يتعلق به لأن الأمثال بحث جديد.كقوله في تفسير الأية : مَثَلُهُمْ كمثل الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا.

فقال : والمثَل في أصل كلامهم : بمعنى المَثل، وهو النَظِير. يقال : مَثَلٌ ومِثْلٌ ومَثِيلٌ، كشَبَهٍ وشِبْهٍ وشَبِيهٍ. ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده : مثل. ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلا للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول، إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه[1].

وكان الزمخشري يبين معاني المفردات التي أراد تفسيرها، كقوله في بيان معنى النار و النور :

[1] الزمخشري، الجزء الأول

والنار : جوهر لطيف مضيء حارّ محرق. والنور : ضوءها وضوء كل نير، وهو نقيض الظلمة. واشتقاقها من نار ينور إذا نفر؛ لأنّ فيها حركة واضطراباً، والنور مشتق منها. والإضاءة : فرط الإنارة. ومصداق ذلك قوله : هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَمس ضِيَاءً والقَمَر نُوْراً (يونس : ٥)، وهي في الآية متعدية.

. اتباعه طريقة السؤال كقوله : "إن قلت" (بفتح التاء)، ويقول في الجواب: "قلت" (بضم التاء) كقوله :

فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً، وما مثل المنافقين ومثل الذي استوقد ناراً حتى شبه أحد المثلين بصاحبه؟ قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام، للحال أو الصفة أو القصة، إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً.

وكان زمخشري يبحث عن اللغة من كل وجوه كالنحو و الصرف. كقوله في قول الله تعالى : فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ.

فإن قلت : أين جواب لما؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن جوابه :ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ. والثاني : أنه محذوف كما حذف في قوله : {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ} (يوسف : ١٥). وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدالّ عليه، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى، كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين على فوت الضوء، خائبين بعد الكدح في إحياء النار.

تقديم أراء العلماء في اختلاف القراءات: ومنه قوله تعالى : {وَتَرَكَهُمْ فِي ظلمات} قرأ الحسن "ظلمات" بسكون اللام وقرأ اليماني "في ظُلمة" على التوحيد ثم قوله تعالى : يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ. وقرأ مجاهد "يخطف" بكسر الطاء، والفتح أفصح وأعلى، وعن ابن مسعود : يختطف. وعن الحسن : يخطف، بفتح الياء والخاء، وأصله يختطف. وعنه : يخطف، بكسرهما على إتباع الياء الخاء. وعن زيد بن علي : يخطف، من خطف

استخدام الشعر العربي لتفسير بعض الآيات القرآنية.

كقوله عند تفسير الأية : { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ }. كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدّوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما إيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله:

صُم إذا سَمِعُوا خَيْراً ذَكِرْتُ بِه.... وإنْ ذَكِرْتُ بُسوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ.... أَصَمُّ عَنِ الشَّيْءِ الّذِي لا أرِيدُهُ[1]

تقديم أسباب النزول للأية التي فيها أسباب النزول.

كقول الله تعالى في أمثال المنافقين : "وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ "[2].كان عبد الله بن أبيّ رجلاً جسيماً صبيحاً، فصيحاً، ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم.

وهذه هي خطوات التي سار عليها الزمخشري عند تفسير الأية التي فيها الأمثال. و من تلك الخطوة المذكورة معروف بأنه إمام من أئمة اللغة والمعاني و البيان.

ب. تفسير الآيات عن أمثال المنافقين عند الزمخشري

عندما بحثت في كتاب للراغب الأصفهاني عن أمثال المنافقين فى القرآن الكريم وكذلك بعد إطلاع الكتب المتعلقة بها فوجدت أنها جاءت في أربعة موضوعات في مختلف سور هي : سورة البقرة الأية : ٢٠-١٧، وسورة التوبة الأية : ٦٨-٦٩، وسورة الحشر الأية :١٤-١٧ وسورة المنافقون الأية : ٤، كما سيأتي تفسيره و بيانه عند الزمخشري في كتابه

[1] أسامة بن منقذ – لباب الآداب – موقع الوراق
[2] سورة المنافقون : الآية : ٤

1. سورة البقرة الأية : ١٧ - ٢٠

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان. ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد.

قال الزمخشري في تفسيره أن معنى قوله تعالى "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا" هو : حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين على فوت الضوء، خائبين بعد الكدح في إحياء النار.

والنار : جوهر لطيف مضيء حارّ محرق. والنور : ضوءها وضوء كل نير، وهو نقيض الظلمة. واشتقاقها من نار ينور إذا نفر؛ لأنّ فيها حركة واضطراباً، والنور

مشتق منها. والإضاءة : فرط الإنارة. ومصداق ذلك قوله : هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَمْسَ ضِيَاء والقَمَر نُورا (يونس : ٥)، وهي في الآية متعدية.
ومعنى النار عند الزمخشري في الأية المذكورة يحتوي على معنيين، مجازية و حقيقية. وإذا كانت النار مجازية وهو نار الفتنة والعداوة للإسلام، وتلك النار متقاصرة مدّة اشتعالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله : {كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا الله} (المائدة : ٦٤)، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي، ويتعهدوا بها في طرق العبث، فأطفأها الله وخيب أمانيهم.
وإسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله : {ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ} عند الزمخشري هو : إذا طفئت النار بسبب سماوي ريح أو مطر، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد. ووجه آخر، وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله.

وقوله : {وَتَرَكَهُمْ فِي ظلمات} أصله : هم في ظلمات، ثم دخل ترك فنصب الجزأين. والظلمة عدم النور. وقيل : عرض ينافي النور. والمفعول الساقط من {لاَّ يُبْصِرُونَ} من قبيل المتروك المطرح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، لا من قبيل المقدر المنوى، كأنّ الفعل غير متعدّ أصلاً.

وشبهت حالهم بحال المستوقد لأنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورّطوا في حيرة. المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمي بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد. ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم وما افتضحوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق.

وكانت الأية السابقة بين لنا أن المنافقين من يظهرون الايمان وهم مبطنون الكفر وما هم بمؤمنين في قلوبهم كحال الذي استوقد ناراً. فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين على ضياع الضوء، خائبين بعد الكدح

في إحياء النار. وضرب الله هذه الأمثال لإيضاح المعنى الخفي وتقريب المعقول من المحسوس، وعرض الغائب في صورة الشاهد، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب، وأثبت في النفوس.

ثم قال الزمخشري في قوله تعالى : {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ}. وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات.وتنكير النار للتعظيم. كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدّوا عن الإصاخة إلى الحق ما سمعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله.

ومعنى {لاَ يَرْجِعُونَ} أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها، تسجيلاً عليهم بالطبع، أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخرون؟ وكيف يرجعون إلى حيث ابتدءوا منه.

ونستنبط من هذه الأية أنها إخبار عن أولئك المنافقين بأنهم قد فقدوا بعض حواسهم للاهتداء بعد أن اشتروا الضلالة بالهدى و مستحيل أن يرجعون إلى الحق، لأن ليس لهم أذن يسمعون صوت الحق وليس لهم ألسنة ينطقون به وليس لهم أعين يبصرون آثاره وذلك لتوغلهم فى الفساد فلذا هم لا يرجعون عن الكفر إلى الايمان بحال من الأحوال.
ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف، وإيضاحاً غب إيضاح. وكما يجب على البليغ في مظانّ الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز؛

فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع. فلذا قال الله تعالى استمرارا للأية السابقة :

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ، يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1] .

قد شبه المنافق في التمثيل الأوّل من السورة البقرة الأية ١٧ بالمستوقد ناراً، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، و شبه في التمثيل الثاني من هذه الأية بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق. شبه دين الإسلام بالصيب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق. وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى : أو كمثل ذوي صيب. والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا. وتمثيل الثاني هو أبلغ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدّة الأمر وفظاعته، ولذلك أُخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.

فكذلك قوله : {أَوْ كَصَيِّبٍ} معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين، وأن القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك. والصيب : المطر الذي يصوّب، أي ينزل ويقع.

[1] البقرة : الآية : ١٩،٢٠

وقوله : {مّنَ السماء}قال الزمخشري الفائدة في ذكره أنه جاء بالسماء معرفة فنفى أن يتصوّب من سماء، أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق، لأنّ كل أفق من آفاقها سماء، كما أن كل طبقة من الطباق سماء في قوله :{وأوحى فِى كُلّ سَمَاء أَمْرَهَا} (فصلت : ١٢). الدليل عليه قوله : ومِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بَيْنَنا وسَمَاءِ... والمعنى أنه غمام مطبق آخذ بآفاق السماء، كما جاء بصيب.

وقال الزمخشري لا محل لقوله : {يَجْعَلُونَ} لكونه مستأنفاً، لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدّة والهول، فكأن قائلاً قال : فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل : {يَجْعَلُونَ أصابعهم فِى ءاذَانِهِم} ثم قال : فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل : يكاد البرق يخطف أبصارهم.

وقوله : {مّنَ الصواعق} متعلق بيجعلون، أي : من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم، والصاعقة : كصفة رعد تنقض معها شقة من نار، قالوا : تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه، وهي نار لطيفة حديدة. لا تمرّ بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود. يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت. ويقال : صعقته الصاعقة إذا أهلكته، فصعق؛ أي مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق. ومنه قوله تعالى : {وَخَرَّ موسى صَعِقًا} (الأعراف : ١٤٣).

وقوله {كُلَّمَا أَضآءَ لَهُم} استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول : كيف يصنعون في تارتي خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء الله لذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق.

وقوله {على كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ} أن لا يكون الفعل مستحيلاً عند الله، فالمستحيل مستثنى في نفسه عند ذكر القادر على الأشياء كلها، فكأنه قيل : على كل شيء مستقيم قدير. ونظيره : فلان أمير على الناس أي على من وراءه منهم، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس.

وكانت الأية السابقة ضرب الله مثلا آخر لهؤلاء المنافقين، وصورة المثل العجيبة على حالهم هى مَطر غزير فى ظلمات مصحوب برعد قاصف وبرق خاطف وهم فى وسطه مذعورون خائفون يسدون آذانهم بأطراف أصابعهم حتى لا يسمعون صوت الصواعق خوفا من الموت. شبه دين الإسلام بالصيب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وشبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق. وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. ومن هداية هذه الآيات أن القرآن تحيا به القلوب كما تحيا الأرض بماء المطر.

الفصل الثالث

النواحي التي ركز عليها الزمخشري في تفسير الآيات القرآنية

والزمخشري يعتمد على اللغة ويطبّق القواعد البلاغية في تناول الآيات ، وهو يعالج موضع الإعجاز بطريقة عملية ، وفيها أوّلا يهتم بنظم القرآن ، ويدرك الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتشابهة ، ويستقصي الظواهر الأسلوبية لعبارات القرآن الكريم من التقديم والتأخير ، والتكرار والتأريخ ، والحذف وما إلى ذلك ، ويحاول أن يصل إلى السر الكامن وراء الظواهر الأسلوبية ، ويعتبر بالبنية الصوتية ودراسة التركيب الصوتي ، والتجانس الصوتي في صروف الألفاظ .

ويقسّم الزمخشري الحروف إلى مجموعات حسب مخارجها كالجهر والهمس ، أو الشدّة والرّخوة ، والاستعلاء والانقظاظ ، والحروف الصّغيرة ، ويتحدث عن معاني الحروف ويتخذها دليلا على إعجاز القرآن ، ويبحث عن العلاقة بين النظم والمعنى .

والتنكير في قوله تعالى : سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ [1]

يقول الزمخشري وهو يدلّ على المعنى المادية .

وهو يفسّر الآيات القرآنية ناظرا إلى بناء الجملة والعبارة ، وينظر إلى أدوات القسم ويبيّن غاياتها البلاغية ، وكذلك إلى حروف النداء ، والظواهر البلاغية في التقديم والتأخير ، كما نستفيد من تفسيره للآيات التالية :

[1] سورة الإسراء : الأية ١

ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ [1]

لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ [2]

وهنا يقول الزمخشري :" فان قلت هلا قدم الظّرف على الريب كما قدّم على الغول في قوله تعالى – لا فيها غول - قلت : لأنّ القصد في إبلاء الريب حرف النفي ، نفي الريب عنه وإثبات أنّه حق وصدق لاباطل وكذب كما كان المشركون يدعونه ، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أنّ كتابا آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد في قوله - لا فيها غول – تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنّها لا تغتال العقول كما تغتالها هي " [3]

وقد تتبّع الآيات التي فيها التكرار وكشف ما فيها من الأسرار البلاغية ، مثلا أشار إلى كلمة " صراط" في سورة الفاتحة .

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ [4]

يقول :" قلت : فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده "[5].

وبيّن أيضا الإيجاز في بعض الآيات ، مثلا في قوله تعالى :

---

[1] سورة البقرة : الآية : ٢
[2] سورة الصافات : الآية :٤٧
[3] الكشاف ، الجزء الأول ، صفحة : ١١٤،١١٥
[4] سورة الفاتحة : الآيات : ٦ ، ٧
[5] الكشاف ، الجزء الأول ، صفحة : ٦٨

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ [1]

وهو يقول : " فان قلت : هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة ؟ قلت : ما أورده الله أحكم ، لأنّه لو قيل كما قلت لجاز أن يتوهّم إطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك ، وكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلاّ أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة". [2]

وكذلك "القصر" في قوله تعالى :

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ [3]

وقال عن جمال الحذف القرآني في التركيب الآتي:

لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ [4]

"وهذا إجمال تفصيله ، فإن قلت : هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر؟ قلت : ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله كما ضوعف حظه لذلك " [5].

وكذلك يصوّر الزمخشري الخيال والصورة في مسّ الشيطان من الآية التالية :

فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ [1]

---

[1] سورة العنكبوت : الآية : ١٤
[2] الكشاف ، الجزء الثالث ، صفحة : ٢٠٠
[3] سورة الشعراء : الآية : ٢٩
[4] سورة النساء : الآية : ١١
[5] الكشاف ، الجزء الأول ، صفحة : ٥٠٥

وعثر على الجمال في التأويل مع الإعجاز في قول الله تعالى :

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ [٢]

والأمر في هذه الآية بالفسق وهذا بالمجاز " افسقوا " هذا مايقول : إنه صبّ عليهم النعمة وتجعلها ذريعة إلى المعاصي ، فكأنما أمروا بذلك بتصبب إبلاء النعمة فيهم .

وفي مسيرة تفسيره للآيات نرى أنه يحاول أن يوضح معانيها كلّها في أشكال بلاغية . ويعرض لما فيها من التشبيهات والاستعارات والكنايات ، ووضّح جميلا التشبيه التمثيلي في الآية الآتية :

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ [٣]

وتشبيه المعقول بالمعقول ، وتشبيه شيئين بشيئين ، والآيات التي تكثر فيها الاستعارات والكنايات ، كلّها ينظر إليها المفسرّ بعين البلاغة ويرى وراء هذا الجمال اللغوي إعجاز القرآن اللغوي ، لأنه هو كتاب الله العزيز الحميد .

---

[١] سورة آل عمران : الآية :٣٦
[٢] سورة الإسراء : الآية : ١٦
[٣] سورة الأنعام : الآية :٧١

الفصل الرابع

منهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الصريحة

١. خطوة الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الصريحة

أ. بيان مناسبة الأية بالأية السابقة

ب. البحث عن الأمثال من كل وجوه. كمعنى الأمثال، فوائد الأمثال و عما يتعلق به لأن الأمثال بحث جديد.

ج. بيان معاني المفردات للأية المفسَرة

د. اتباعه طريقة السؤال كقوله : "إن قلت" (بفتح التاء)، ويقول في الجواب: "قلت" (بضم التاء)

ه. البحث عن اللغة من كل وجوه كالنحو و الصرف

و. تقديم أراء العلماء في اختلاف القراءات

ز. استخدام الشعر العرب لبيان تفسير بعض الآيات القرآنية

٢. أمثال المنافقين في القرآن

عندما بحثت عن أمثال المنافقين في القرآن عند الزمخشري فوجدت أنها جاءت في أربعة موضوعات في مختلف سور هي : سورة البقرة الأية : ١٧-٢٠، وسورة التوبة الأية : ٦٨-٦٩، وسورة الحشر الأية : ١٧- ١٤ وسورة المنافقون الأية : ٤. كما تقدم تفسيره و بيانه عند الزمخشري. وهو يحتوي على خمسة أمثال :

أ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾.[1] وشبهت حالهم بحال المستوقد لأنهم غب

[1] البقرة : ١٨

الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورّطوا في حيرة. المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم.

ب. ومثلهم كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، شبه دين الإسلام بالصيب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق. وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق.

ج. وكَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ : شبه المنافقون به في عدم الانتفاع

د. ومثلهم كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم، بأن الله وعد للمنافقين عذابا شديدا في الدنيا والآخرة جزاء بما عملوا كما فعل الذين من قبلهم.

ه. ومثلهم كَمَثَلِ الشيطان إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة. وهو إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان.

وحصيلة البحث : إنّ التمثيل الوارد في القرآن الكريم ، تارة يقترن بكلمة المثل ، وأخرى يقترن به مع لفظ الضرب حيث اختار سبحانه مادة الضرب لقسم كبير من أمثال القرآن ، وثالثة بحرف كاف التشبيه ، ورابعة بذكر مادة المثل بدون اقتران بواحد منهما مثل وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾[1]

[1] سورة الأعراف : ٥٨

الفصل الخامس

منهج الزمخشري في تفسير آيات الأمثال الكامنة

ويمكن تفسير المثل الكامن بالتمثيلات التي وردت في الذكر الحكيم من دون أن يقترن بكلمة " مثل " أو " كاف " التشبيه ، ولكنّه في الواقع تمثيل رائع لحقيقة عقلية بعيدة عن الحسن المجسّد بما في التمثيل من الأمر المحسوس ، ومن هذا الباب قوله سبحانه :

١) .أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾.[١]

إنّه سبحانه شبَّه بنيانهم على نار جهنم بالبناء على جانب نهر هذا صفته ، فكما أنّ من بنى على جانب هذا النهر فإنّه ينهار بناءه في الماء ولا يثبت ، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنم ، فالآية تدلّ على أنّه لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق ، فإنّ عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني على أصل صحيح ثابت ، وعمل المنافق ليس بثابت وهو واهٍ ساقط.

[١] سورة التوبة : ١٠٩

٢) .إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾[1]

كانت العرب تمثّل للشيء البعيد المنال ، بقولهم : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ، وحتى يَبْيَضَّ القار ، إلى غير ذلك من الأمثال .

يقول ابن أبي الدنيا :

وصار القار كاللبن الحليب إذا شاب الغراب أتيت أهلي[2]

ولكنّه سبحانه مثّل لاستحالة دخول الكافر الجنّة بأنّهم يدخلون لو دخل الجمل في ثقب الإبرة ، وقال : ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط ، معبراً عن كونهم لا يدخلون الجنة أبداً .

ففي الآية تمثيل وليس لها من لفظ المثل وحرف التشبيه أثر .

٣) .وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾.[3]

إنّ هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فأخبر بأنّ الأرض كلّها جنس واحد ، إلا أنّ منها طيّبة تلين بالمطر ، ويحسن نباتها ويكثر ريعها ، ومنها سبخة لا تنبت

[1] سورة الأعراف : ٤٠
[2] مجموعة رسائل – ابن أبي الدنيا
[3] سورة الأعراف : ٥٨

شيئاً ، فإن أنبتت فممّـا لا منفعة فيه ، وكذلك القلوب كلّها لحم ودم ثمّ منها ليّن يقبل الوعظ ومنها قاسٍ جافٍ لا يقبل الوعظ ، فليشكر الله تعالى من لانَ قلبه بذكر.

وفي ذيل الآية كَذلِكَ نُصَرّفُ الآيات إلمام إلى كونه تمثيلاً ، كما في الآية التالية .

٤) قال سبحانه : أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾.[1]

أخرج البخاري عن ابن عباس ، قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي صلى‌الله‌عليه وآله وسلم فيمن ترون هذه الآية نزلت " أَيَوَدُّ أَحدكُمْ أَنْ تَكُون لَهُ جَنَّة مِنْ نَخيل وَأَعْناب "؟

قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، وقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء ، فقال : يابن أخي : قل ولا تحقِّر نفسك ، قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعملٍ ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غني عمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله .

لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

[1] البقرة : ٢٦٦

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾[1]

بعد ما بين الله سبحانه وتعالى عن أحوال اليهود و المنافقين في الأية السابقة على أنهم لا يقدرون على مقاتلة المؤمنين إلا في قرىً محصنة أو من وراء جدر، لقذف الله الرعب في قلوبهم، و قُلُوبُهُمْ متفرقة لا ألفة بينها، يعني : أنّ بينهم إحنا وعداوات، فلا يتعاضدون حق التعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة. وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم. ثم ضرب الله تعالى مثلين للمنافقين، كما فسره الزمخشري بالأية التالية :

{كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ قرِيبًا} أي مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب. {ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ} سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، من قولهم كلأ وبيل : وخيم سيء العاقبة، يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا {وَلَهُمْ} في الآخرة عذاب النار.

مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم {كَمَثَلِ الشيطان} إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد استغواؤه قريشاً يوم بدر؛ وقوله لهم : {لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنّي جَارٌ لَّكُمْ} إلى قوله {إِنِّى برىء مِّنكَ} (الأنفال : ٤٨) وقرأ ابن مسعود : «خالدان

[1] سورة الحشر : ١٤ - ١٧

فيها»، على أنه خبر أنّ، و {فِى النار} لغو، وعلى القراءة المشهورة : الظرف مستقر، وخالدين فيها : حال. وقرىء : "أنا بريء" وعاقبتهما بالرفع.

بناء على بيان الزمخشري بالأية السابقة، نستنبط بأن الله يضرب مثلين للمنافقين، أوله : أنهم كمثل أهل بدر في زمان قريب، ذاقوا سوء العاقبة لكفرهم وعداوتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم في الآخرة عذاب النار. وثانيه : أن المنافقين كَمَثَلِ الشيطان إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة، وهو إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا تؤمن خان، فهذه هي أوصاف المنافقين المجرمين خالدين في النار و ذالك جزاء الظالمين. فينبغي لكل مسلم أن يجتنب من تلك الأوصاف المذمومة.

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾[1]

قال الزمخشري في تفسير هذه الأية : إن هذه الأية لها أسباب النزول هي: كان عبد الله بن أبيّ رجلاً جسيماً صبيحاً، فصيحاً، ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم.

بناء على بيان الزمخشري بالآية المذكورة، نستنبط بأن أمثال المنافقين في قول الله كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يراد به معنيان :

[1] سورة المنافقون : الآية : ٤

أ. شبهوا في استنادهم بالخشب المسندة إلى الحائط، لأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع.

ب. ويجوز أن يراد بالخشب المسندة : الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان؛ شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم .

وزاد الزمخشري في تفسيره أن الخطاب في قوله تعالى {رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ} لرسول الله، أو لكل من يخاطب.{كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ} وعن اليزيدي أنه قال في {خُشُبٌ} : جمع خشباء، والخشباء : الخشبة التي دعر جوفها : شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم، {عَلَيْهِمْ} أي : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم، لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب. {هُمُ العدو} أي الكاملون في العداوة : لأنّ أعدى الأعداء العدوّ المداجي، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي {فاحذرهم} ولا تغترر بظاهرهم. {قاتلهم الله} دعاء عليهم، وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم. أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك {أنى يُؤْفَكُونَ} كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم.

هذه الأية تنبهنا بأن نبتعد من المنافقين الذين ليس لهم المنفعة لمصلحة الأمة كالخشب الذي أسند إلى الحائط غير منتفع به، ولوكان ظاهره صالحا وحقيقته فاسدا. وهذا هو مثل المنافقين ولوكان يعجبنا أجسامهم لجمالها ولكن غير منتفع للناس وهم عدونا مبين لأنهم يظهرون ما يخالف في بطونهم.

Shafeeq Rehman, P. “The Parables and Similes of the Holy Qur’an and its impacts in the Arabic literature with special reference toThafseer Al Kasha’f”.Thesis, Department of Arabic, Farook College, University of Calicut, 2018.

الباب الرابع

تأثير الأمثال القرآنية بالشعر العربي والخطابة

الفصل الأول : - الاقتباسات من القرآن في الشعر العربي القديم

الفصل الثاني : - وجود الألفاظ القرآنية في الشعر العربي

الفصل الثالث : - تأثير أيات القرآن في الأمثال بالشعر الحديث والمعاصر

الفصل الرابع : - الخطابة والأمثال القرآنية

الفصل الخامس: - كتاب "نهج البلاغة " وأسلوبه القرآني

الفصل الأول

الاقتباسات من القرآن في الشعر العربي القديم

شكل القرآن الكريم علي مر العصور نبعا صافيا ملهما للشعراء, فقد تأثر الكثير من الشعراء بالقرآن منذ نزول الوحي علي النبي صلي الله عليه وسلم وحتي يومنا هذا.

واستخدم الشعراء المصطلحات والتراكيب والم عاني القرآنية ومن أوائل الشعراء الذين تأثروا بالقرآن الكريم حسان بن ثابت الذي قال متأثرا بالآية الكريمة: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء بيدك الخير إنك علي كل شيء قدير.

تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالحمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح, وانكشف الغطاء
وإلا, فاصبروا لجلاد يوم يعز الله فيه من يشاء

ومن أكثر الأبيات التي تأثر ناظمها بآيات القرآن الكريم, أبيات النابغة الجعدي التي قال فيها:

الحـــــــمد لله لا شـــــريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار وفي الليـــ ـــــــــل نهارا يفرج الظلما
الخافض الرافع السماء علي الـ أرض ولم يبق تحتها دعما
الخالق الباريء المصور في الـ أرحام ماء حتي يصير دما
من نطفـــــة قدها مـــــقدرها يخلق منها الأبشار والنسما
ثم عظاما أقـــــامها عصـــبا ثمت لحما كساه فالتأما
ثم كسا الرأس والعواتق أبـ ـشاراوجـــــلدا تخالـــــه أدما
والصوت واللون والمعايش والـ أخلاق شـــتي وفرق الكـــــــلما
ثم لا بـــــد أن سيجمعكم والله جهرا شهادة قسما

فائتمروا الآن ما بدا لـــــكم واعتصموا إن وجدتم عصما
في هذه الأرض والسماء ولا عصمة منه إلا لمـــن رحما

أما الأخطل, فقد اقتبس معني الآية الكريمة" لا تكلف نفس إلا وسعها" في أبياته وقال:

ألوم أجهد نفسي ما وسعت لم وهل تكلف نفس فوق ماتسع

وأبونواس له ابيات يقسم فيها بالله منزل سور من القرآن الكريم علي عدم فراق محبوبته ،يقول :

والله منزل طه والطور والذارات,الر, ص, وق, والحشر والمرسلات
ورب هود ونون والنور والنازعات لا رمت هجرك حبي حت وان لم تواتي

وقد تأثر أبو العتاهية بآيات القرآن, و معاني شعره في الزهد والمواعظ والحكم تأثر فيها بالكتاب والسنة وما جري من الحكم علي ألسنة السلف, ويشير د. شوقي ضيف الي كثرة ما نقله إلي زهدياته من آي الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلي الله عليه وسلم ووعظ الوعاظ ومن أمثال الحسن البصري. يقول أبو العتاهية زاهدا ومؤكدا أن القليل الحلال هو الذي يؤدي إلي السعادة في الدنيا والآخرة:

رغيف خـبز يابس تـأكـلـه فـي زاويـة

و كـوز مـاء بارد تـشربـه مـن صافيـة
و غـرفـة ضيـقة نـفسك فيـها خاليـة

أو مسجـــد بمعزل عن الوري في ناحـــية
تقرأ فيه مصحـــفا مـــستنـدا بســاريـة

معتبرا بمن مضـــي من القـــرون الخـــالية
خير من الساعات في ترف القـصور العـالية

تعـقبـها عقـوبـة تصلي بنـار حـــامية

وقد أخذ أبو العتاهية الشطر الثاني من البيت الأخير من قوله تعالي:" تصلي نارا حامية".

وعن ميعاد الموت ومكانه, يقول الشاعر:

ليت شعري فإنني لست أدري أي يوم يكون آخر عمري
وبأي البلاد تقبض روحي وب أي البلاد يحفر قبري

مستخدما معني الآية الكريمة:" وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت".

وفي العصرالحديث تأثر كثيرون بالقرآن لفظا وروحا. من ذلك قول بدر شاكر السياب متأثرا بقوله تعالي:" يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا" حيث يقول:

يا ليتني لم أكن رأيتك من قبل ولم ألق منك عطف حنون
آه لو لم تعوديني علي العطف وآه لو لم أكن أو تكوني

ويعد الشاعر أحمد مطر أحد الشعراء الذين تأثروا بالآيات والأساليب القرآنية في غير مرة, فيقول في إحدي قصائده:

إن الانسان لفي خسر
والعصر
فاذا الصبح تنفس
فهذا العصر

متأثرا بالآيات" والعصر- إن الانسان لفي خسر" و" والصبح إذا تنفس"
ويقول في قصيدة أخري متأثرا بقول الله تعالي" ومن الناس من يعبد الله علي حرف":

تأتنا من الغرب
صارت الاصنام
تعبد الله على حرف
ولكن.. بثاب عربه

ومن قصص القرآن الكريم, يستمد بدر شاكر السياب أبياته :

اروي لنا نبأ الطريد فأنت راوية الزمان
أغوته حواء فسد يديه نحو الأفعوان
ذاقا فكانا ظالمين فكيف يجزي الظالمان؟
وبدا المواري منهما فإذا هنالك سوءتان
وعليهما طفقا من الورق المهدل يخصفان

ومن الواضح أن الشاعر يستقي قصته من القرآن الكريم معني وأسلوبا وألفاظا, وبالتحديد من قوله جل وعلا :فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ

﴿٢٣﴾.

كما يفعل مع الآية الكريمة : وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فيقول:

إنه الرطب
تساقط في يد العذراء وهي تهز في لهفة
بجذع النخلة...

وهذا المعني الأخير بالتحديد, نقصد الإشارة إلي نخلة مريم، صار صرعة عند شعراء العربية في السنوات الأخيرة. وسيبقي القرآن بإعجاز لغته وأساليبه ومعانيه ملهما للشعراء باقيا معجزا

أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام مضمونا وأسلوبا

نزل القرآن الكريم باللسان العربي المبين، فتمثلت فيه الصورة المثلى للبيان العربي، ورأى فيه فصحاء العرب وبلغاؤهم جوهر فطرتهم في اللغة والبيان وأدركوا منذ أن استمعوا إلى آياته البينات، أنه فاق المستوى الذي تعارفوه في بيانهم وأشعارهم، فكانوا أول من شهد بإعجازه.

روي أن الوليد بن المغيرة – وكان من فصحاء العرب وذوي الرئاسة فيهم- ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما بدأ القرآن ينزل عليه، فسأله أن يتلو عليه من القرآن، فتلا عليه، ولما عاد إلى قومه قال: " والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة،

[1] سورة الأعراف: ٢٢، ٢٣
[2] سورة مريم : ٢٥

وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر[1]"، وهناك روايات أخرى مماثلة لما روي عن الوليد بن المغيرة، يشهد فيها فصحاء قريش - وهم على كفرهم- بسمو القرآن ويشهدون بذلك على أنفسهم بالعجز.

كان القرآن يروع أولئك الفصحاء بسحر بيانه، ويشد إليه أسماعهم، ويه مشاعرهم هزا قويا، وينفذ إلى نفوسهم فيؤثر فيها، ثم تختلف استجاباتهم . فالجاحدون يتأخرون ويجفلون خوفا منه كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ، والمومنون يجدون فيه بردا وسلاما لقلوبهم، وغذاء روحيا لنفوسهم، ويحيون فيهوبه حياة مفعمة بأحاسيس الرهبة والرجاء تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .

فضل القرآن على الأدباء وأهل البيان

وعندما ثبتت دعائم الإسلام أقبل الناس على القرآن يحفظونه ويرتلونه، ويدرسونه ويتعلمون علومه، فأصبح القرآن أساسا رئيسيا في التربية والتعليم، وعنصرا هاما في الثقافة والتكوين لعامة أبناء المسلمين، ثم غدا مصدرا لاستنباط العلوم، ومرجعا لاستخلاص القواعد والشواهد، ومثالا يستضاء بنوره في البيان وطرق التعبير، كل يجد فيه بغيته. قال الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه " المفردات في غريب القرآن" : " فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب، وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء الحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم" وقال السيوطي في مقدمة كتابه " الإتقان في علوم القرآن" وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، فترى كل ذي فن منه يستمد، وعليه يعتمد، فالفقيه منه يستنبط الأحكام، ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه، يرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك

[1] الشيخ عبد الله النسفي – تفسير النسفي – الجزء الأول – دار القلم – لبنان – ص : ١٨٩٠

البلاغة في صوغ الكلام"[1].

ونظم ابن أبي الأصبع المصري شعرا يصف فيه القرآن، فأوضح ما له من قيمة في البيان، وما له من فضل في زيادة بهاء كلام البلغاء، وزيادة رونقه في الأسماع فقال:

وفي نظمه بعد الغرابة معجز محاسنــه لم تنحصر فتعدد

هدى الناس منه للبديع بديعه فصاغوا حلي القول منه وولدوا

بمعنى يزين المرء منه كلامه فيحلو بأسماع المصغي له ويمجد

هذه الأقوال توضح قيمة القرآن في مجال العلوم الشرعية واللسانية، وفي مجال البيان والبلاغة على السواء، ولئن كان العلماء والدارسون قد عنوا بدراسة تأثير القرآن في وضع تلك العلوم بما فيها علم البلاغة والبيان، فإن أحدا، فيما نعلم، لم يعن بدراسة تأثير القرآن في فن البيان، في الشعر والنثر، مع أن الأقوال التي تقدمت تشهد بأن القرآن " هو مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم"، وان " البياني يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام" ولقد اهتم الدارسون بالبحث عن المؤثرات المختلفة التي أثرت في الأدب العربي شكلا ومضمونا، ولكنا لم نجد حتى الآن بحثا يعنى ببيان موقع القرآن بين غيره من المؤثرات.وفي هذا المقال سنحاول بحول الله إثارة الانتباه إلى شيء من نواحي أثر القرآن في البيان نثره وشعره .

قياس فصاحة الكلام بمدى موافقته لما ورد في القرآن

اتخذ الناس من القرآن مقياسا للفصاحة، وجعلوه مرآة يعرضون عليه ألفاظهم، ومرجعا يرجعون إليه في المفاضلة بين الألفاظ المستعملة في الأمصار المختلفة، وقد روى لنا الجاحظ جانبا من المفاضلة بين لغة أهل مكة ولغة أهل البصرة، قال : حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح قال: قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم، معاشر أهل البصرة، لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن

[1] جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – الإتقان في علوم القرآن- ط٢٠٠٨ - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول قدر، ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل: جفان كالجوابي وقدور راسيات . وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية، وتجمعون هذا الإسم على علالي، ونحن نسميه غرفة، ونجمعها على غرفات وغلاف، وقال الله تبارك وتعالى: غرف من فوقها غرف مبنية. وقال عز وجل :وهم في الغرفات آمنون. وأنتم تسمون الطلع الكافور والإغريض، ونحن نسميه الطلع، وقال الله تبارك وتعالى: وَزُرُوعٍ وَنَخۡلٍ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾[1]

قال الجاحظ:" فعد عشر كلمات لم أحفظ منها إلا هذا ، فهذا رد مفحم لأهل مكة، صدر من رجل شاعر خبير بصناعة الكلام، كثير الممارسة لفن القول، كثير التفكير في انتقاء أحسن الألفاظ وأفصحها، والانشغال الطويل بذلك هو الذي قاده إلى معرفة أفضل اللغات اعتمادا على المثل الأعلى للفصاحة، وهو القرآن "[2].

واتخذ علماء اللغة بدورهم من القرآن مقياسا للفصاحة يشهد لذلك ما روي من أن الأصمعي كان ينكر "زوجة" بالتاء، ويقول:"الصواب "زوج" ويحتج بقوله تعالى أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ[3]، فقيل له إنها وردت في شعر ذي الرمة:

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة أراك لها في البصرة اليوم ثاويا

فقال: ليس ذو الرمة بحجة، إذ طالما أكل البقل والملح في حوانيت البقاليس"[4]

ووجد الخطباء من جهتهم في القرآن ما يزيد من حسن خطبهم، فكان الخطيب منهم يحرص على استحسان ذلك، لأنه مما يزيد من بهاء الكلام يقول الجاحظ: " وكانوا

[1] سورة الشعراء : الآية : ١٤٨
[2] أبوعثمان عمروبن بحر الجاحظ - البيان والتبيين - المكتبة الشرقية - ١٩٥٩
[3] سورة الأحزاب : الآية : ٣٧
[4] الأصمعي – الأجناس في اللغة – منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب – وزارة الثقافة – دمشق - ٢٠١٠

يستحسنون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع أيا من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء"[1].

[1] أبوعثمان عمروبن بحر الجاحظ - البيان والتبيين - المكتبة الشرقية - ١٩٥٩

الفصل الثاني

وجود الألفاظ القرآنية في الشعر العربي

الشعراء ينهلون من القرآن:

لم يكن القرآن مقياسا للمفاضلة بين لغات الأمصار ولا للاحتجاج لفصاحة لفظ دون لفظ، ولا وسيلة لتزيين الخطب فحسب، وإنما كان فوق هذا كله منهلا زاخرا، ينهل الأدباء من ألفاظه ومعانيه، وتتبع مظاهر التأثر بالقرآن في مختلف فنون الأدب العربي موضوع واسع عريض ليس هنا مجال التوسع فيه، ولذلك اخترنا في هذا المقال أن نقف عند بعض مظاهر التأثر بالقرآن لدى شاعر واحد، هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، من شعراء القرن الهجري الثاني.

يمثل القرآن العنصر البارز في ثقافة أبي تمام، شأنه في ذلك شان أدباء العربية إلى حدود العصر الحديث. ومن الأمر البديهي أن يكون هذا العنصر من أبرز المؤثرات في أدبهم شكلا ومضمونا، وقد اخترنا أن نبدأ هذه الدراسة بأبي تمام لأنه كما لاحظ الدكتور محمد نجيب البهبيتي أكثر شعراء العربية تأثرا بالقرآن .والحق أن قارئ شعر أبي تمام لا يكاد يمضي في القراءة حتى تطالعه معاني القرآن وألفاظه، فيخيل إليه وكان الشاعر يضع القرآن بين عينيه يستمد منه متى شاء. ففي القصيدة المشهورة التي مدح بها المعتصم وذكر إحراق الأفشين وصلبه أمثلة كثيرة توضح هذا التأثر، وتظهر الشاعر وكأنما أخذ القرآن بلبه، واستأثر بخياله، ففي هذه القصيدة يقول متحدثا عن الأفشين:

مكرا بنى ركنيه إلا أنه وطد الأساس على شفير هار

"على شفا جرف هار" من قوله تعالى: أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ

بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ[1] ويقول فيها يصف ما فعلت النار بجسم الأفشين:

طارت لها شعل يهدم لفحها أركانه هدما بغير غبار
ففضلن منه كل مجمع مفصل وفعلن فاقرة بكل فقار

قال أبو بكر الصولي: إنما قال: "وفعلن" فخص هذه اللفظة لقوله تعالى: تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾[2] ويقول فيها:

لو لم يكد للسامري قبيلــه ما خار عجلهم بغير خوار
وثمود لو لم يدهنوا في ربهم لم ترم ناقته بهم قــدار

وفي هذين البيتين ألم الشاعر بقوله تعالى: .. فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار. ويقول تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾[3]

ويقول فيها:

ثانية في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هما في الغار

وقد ألم فيه بقوله تعالى: إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ[4] فهذه سنة مواضع من قصيدة واحدة اقتبس فيها الشاعر في عبد الله بن

[1] سورة التوبة : الآية : ١٠٩
[2] سورة القيامة : الأية :٢٥
[3] سورة الشمس : الآيات١١ ـ ١٤
[4] سورة التوبة : ٤٠

طاهر في خراسان لما حجزه ببابه هو وجماعة زمانا، فكتبها في ورقة وأرسلها إليه. قال فيها:

أبهذا العزيز قد مسنا الضـ ـر جميعا وأهلنا أشتات

ولنا في الرجال شيخ كبير ولدينا بضاعة مزجاة

قل طلابها فأضحت خسارا فتجاراتنا بها ترهات

فاحتسب أجرنا وأوف لنا الكيـ ـل وصدق فإننا أموات

وواضح أن الشاعر استلهم في هذه المقطوعة ما جاء في قصة يوسف عليه السلام على لسان إخوته. قال الله تعالى: قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾[1] وقال تعالى: قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾[2]

وفي ديوان أبي تمام أمثلة أخرى كثيرة لتأثره بالقرآن، ينهل فيها الشاعر من معاني القرآن وألفاظه، يقول في الغزل:

قد أوتيت من كل شيء نعمة وودا وحسنا في الصبا مغموسا

لولا حداثتها وأنى لا أرى عرشا لها لحسبتها بلقيســا

فقد ألم في هذين البيتين بقوله تعالى: إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ويقول في الغزل أيضا:

من كل سابغة الشباب إذا بدت تركت عميد القريتين عميدا

[1] سورة يوسف : الآية : ٨٨

[2] سورة يوسف : الآية : ٧٨

يقول التبريزي في شرحه: " وإنما بني هذا الكلام على الآية الكريمة: وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴿٣١﴾[1]

ويقول في وصف المطر مستلهما سورة الإخلاص:

هدية من صمد جواد ليس بمولود ولا ولاد

ومما يوضح عمق تأثر أبي تمام بالثقافة القرآنية ما نراه في شعره من استلهام القرآن في ابتكار المعاني والصور الفنية، فمن ذلك قوله:

مثلث له تحت الظلام بصورة على البعد أقنته الحياء مصمما

كيوسف لما رأى برهان ربه وقد هم أن يعروري الذئب أحجما

فهذا التشبيه مستلهم من موقف يوسف عليه السلام الذي وصفه القرآن في قوله تعالى: وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ[2]

ومن هذا القبيل أو مما هو قريب منه قوله:

لما وردن حياض سيبك طلحا خيمن ثم شربن شرب الهيم

والتشبيه بشرب الهيم مأخوذ من قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾[3] ويقول الشاعر أيضا:

أخرجتهم بل أخرجتهم فتنة سلبتهم من نضرة ونعيم

---

[1] سورة الزخرف : الآية: ٣١
[2] سورة يوسف : الآية : ٢٤
[3] سورة الواقعة : الآيات : ٥١ ـ ٥٥

نقلوا من الماء النمير وجنة رغد إلى الغسلين والزقوم

وهذا المعنى مستلهم من آيات متعددة، قال الله تعالى عن فرعون وقومه :

فأخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم ، وقال تعالى: فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾[1] وقال تعالى :إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾[2]

وفي بعض الحالات يعمد الشاعر إلى الاقتباس المباشر كما في قوله:

وبين الله هذا من بريته في قوله: خلق الإنسان من عجل

وكما وجد أبو تمام في القرآن الكريم معينا غزيرا، يمده بفيض من المعاني، والوان بديعة من فنون البيان، فإنه وجد فيه أيضا مصدرا يمده بالدليل الفني القاطع الذي يرد به على النقاد، حين يأخذون عليه بعض المآخذ.

ولبيان اعتماد أبي تمام على القرآن في الدفاع عن شعره نسوق الخبر المشهور الذي ذكر فيه القدماء أن أبا تمام لما مدح أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية، قام ينشدها بين يديه في مجلسه، فلما بلغ إلى قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا في المشكاة والنبراس

فعجبوا من سرعة فطنته.

ويستنبط من هذا الخبر، إضافة إلى ما ذكره القدماء من سرعة الفطنة أن الشاعر هضم وتمثل بعمق القرآن الكريم، في معانيه وأساليبه ومسالك البلاغة فيه، وهذا التمثل هو الذي أعانه، في اللحظة الحرجة، على أن يستحضر الجواب القاطع، وإلا

[1] سورة الحاقة: الآية : ٣٥ ، ٣٦

[2] سورة الدخان : الآية : ٤٣ ، ٤٤

فالفطنة وحدها لا تكفي في مثل هذا، ورد أبي تمام النقد الموجه إليه مأخوذ من قوله تعالى في سورة النور: ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ[1] مثل الله تعالى نوره بمثال نور مصباح قوي الضياء، في زجاجة شديد الصفاء، والمصباح في مشكاة تجعل أشعة النور مجتمعة فيزداد قوة، وهذا كله ما هو إلا تمثيل يقرب نور الله إلى الأفهام، وكان أبا تمام يقول :إن تمثيل ممدوحه بمن ذكرهم إنما هو تمثيل يقرب حقيقته من أفهام المستمعين، وفي ذلك مدح، أي مدح.

فهذه جملة من الأمثلة، ملتقطة من ديوان شاعر واحد، توضح التأثر العميق الواسع بالقرآن، وتبين أن القرآن كان معينا فياضا ينهل منه الشاعر، ويستمد منه غرر الألفاظ وبديع المعاني.

وليس هذا التأثر مقصورا على أبي تمام وحده، بل لو بحثنا عن مظاهره لدى غير أبي تمام من الشعراء لوجدنا منها ما يشي ويغني، ولو تجاوزنا الشعراء إلى غيرهم من الكتاب والخطباء وغيرهم من أهل البيان لوجدنا عندهم كذلك التأثر بالقرآن بارزا.

وليس في هذا الرأي ما يدعو إلى التأكيد بالإكثار من الأدلة، فتأثر الأدباء المسلمين عامة بالقرآن أمر جلي لا خفاء فيه، ومرده إلى أن القرآن كان العنصر البارز في التكوين الثقافي للمسلمين عامة، يحفظونه أول ما يحفظون، ويقطعون الليل والنهار بتلاوته ودراسته، فلا غرو أن يتأثروا به، ويغرفوا من معانيه وألفاظه وأساليبه، وما أبو تمام في هذا إلا مثال سقناه لتوضيح هذا الرأي.

[1] سورة النور : الآية :٣٥

الفصل الثالث

تأثير أيات القرآن في الأمثال بالشعر الحديث والمعاصر

"من المعروف أن القرآن الكريم قد بهر العرب بأسلوبه الفني المعجز، وقيمه الفكرية، والتشريعية السامية، فأكبّوا على مدارسته وحفظه والعناية به عناية لم يحظَ بها أثر فكري أو أدبي على الإطلاق.وكان حظ العربية وآدابها من هذا الكتاب كبيراً، بما أمدّها من روح جديدة، وبما أضفاه عليها من أساليب بلاغية رفيعة"[1].

بهذه الكلمات يفتتح المؤلف كتابه الصادر عن دار المعرفة للنشر بدمشق.

ولكنه يعتبر أن دارسي الأدب ونقّاده القدامى ـ كما في العصر الحديث ـ لم يُعنوا بالأثر الذي تركه القرآن في الأدب العربي، ولم يعطوه جانباً مستقلاً من دراساتهم.

ولذا، فقد آثر المؤلِّف أن يأخذ على عاتقه المساهمة في سدّ هذا النقص. بدراسة المرحلة الإحيائية من الشعر الحديث لشدّة ارتباطها بالقرآن وبالتراث عموماً، ولم يتناول بطبيعة الحال كل شعراء هذه المرحلة، بل تناول أعمدتهم، فجاءت دراسته مركّزة حول الرصافي والجواهري وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومحمد العيد آل خليفة وأحمد سحنون.

الروح الدينية والنهضة الحديثة:

يرفض الكاتب محاولة الكثيرين اعتبار النهضة الحديثة في العالم الإسلامي من نتائج الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ وما أعقبها من اتصال بالحضارة الأوروبية. ويقرر المؤلِّف أن الفكرة الإسلامية كانت هي النزعة الطاغية على

[1] شلتاغ عبود شراد – أثر القرآن في الشعر العربي الحديث – دار المعرفة - ١٩٨٧

اهتمام الناس، ولم تكن أفكار مثل الوطنية والقومية مفهومة كما نفهمها نحن اليوم، بل كانت مختلطة بالمفهوم الديني غير منفصلة عنه.

ويؤكّد أنّ المكونات الثقافية التراثية الإسلامية للشعراء الستّة لم تكن غريبة عن روح العصر الذي عاشوه، حيث الابتداء بحفظ القرآن، ثم التدرّج في فهم العلوم العربية التي تتعلق بكتاب الله.

إن الثقافة الدينية التي رضع هؤلاء الشعراء من لبانها، أمْلَتْ عليهم الاهتمام بالموضوعات الدينية، مثل المدائح النبوية، وتسجيل المناسبات الدينية وغير ذلك.

المعاني القرآنية في الشعر الإحيائي:

لقد كانت العقائد الدينية والمعاني القرآنية من الروافد الأصلية التي ألهمت شعراء هذه الفترة وأغنت تجاربهم، وفتحت أمامهم أبعاداً خصبة من الرؤية الكلية للحياة والوجود.

أما أهم الموضوعات التي نالت اهتماماً خاصاً لدى هؤلاء الشعراء فهي: صفات الله تعالى، والإيمان به وبرسله وبملائكته، والإيمان بالغيب والقدر، والجنة والنار، والثواب والعقاب، ثم ذِكْر صفات المؤمنين وموضوع العبادة وصفات المنافقين والكافرين.

فمن شعر محمد العيد آل خليفة نقرأ فيما يسوقه لنا من صفات الله:

الغالب القهّار فوق عباده من ذا يكيد الغالب القهار[1]

وفي القضاء والقدر يقول أحمد شوقي:

يتمشى القضاء خلف نواهي كَ حديد الأظفار يطلب صيد[2]

وعن صفات المؤمنين يقول أحمد سحنون:

[1] مجلة نور الإسلام/ العددان ١٣ و١٤ لسنة ١٩٩١م
[2] نفس المرجع

ومن يتحلّ بثوب التقى يجد مخرجاً، وَيَنَلْ ما طلبْ
ويلقَ رضا الله عن جنده ويرزقْه من حيث لا يحتسب[1]

اللغة القرآنية والشعراء الإحيائيون:

للّغة القرآنية طبيعة وخصائص تميزها عن غيرها. وللقرآن دقة خاصة في استعمال اللفظة ووضعها، واللفظة القرآنية مشعّة بأكثر من دلالة، وموحية بأكثر من معنى، وكله مقبول مرضي في الوجدان والعقل.

وقد أفاد الشعراء الإحيائيون من هذه اللغة القرآنية وخصائصها. وترد في شعر الإحيائيين الكثير من الألفاظ القرآنية مثل الهدى والإيمان والتقى، وما يقابلها من ألفاظ الضلال والشرك والكفر، وغيرها كثير.

ومن خصوصيات اللغة القرآنية التي استفاد منها الشعراء الإحيائيون (المفردات المتجاورة)، وكذلك الأساليب اللغوية القرآنية كأسلوب الدعاء والاستفهام والعرض والتمنّي والرجاء والشرط والقسم والنفي والتوكيد والتعجّب والمدح والذم.

الصور القرآنية والشعر:

الصورة القرآنية ملازمة للتعبير القرآني، وهي من أبرز عناصر الجمال فيه وتمتاز بأنها صورة حسيّة في أغلب الأحيان، وهي دقيقة في إصابتها للهدف، والحركة سمة بارزة فيها، وهي مضغوطة بقليل من الألفاظ الموجزة أشدّ الإيجاز.

[1] نفس المرجع

وقد أفاد الشعراء الإحيائيون من الصورة القرآنية في شعرهم، على مستوى الصورة المفردة، حين تكون اللفظة بحدّ ذاتها موحية بصورة معناها، وعلى مستوى الصورة الكلية، والصورة المنقولة، مثل قول الشاعر معروف الرصافي:

تراهم سكارى في العذاب وما هُم سكارى، ولكنْ من عذاب مشدّدِ[1]

وكذلك استفاد الشعراء من المَثَل القرآني، وهو من مظاهر الصورة القرآنية، ومن مشاهد الطبيعة الواردة بكثرة في القرآن الكريم كما في قول شوقي:

ألله صاغكِ جنّتينِ لخلقه محفوفتين بأنْعُم لعياله[2]

كما تأثّروا بمشاهد يوم القيامة.

الأعلام القرآنية والرمز الشعري:

الرمز تعبير غير مباشر يتجنب فيه الشاعر أو الأديب تسمية الأشياء بأسمائها، ويكتفي بذكر ما يوحي بها، ويستحضرها عبر أدوات لغوية وتصويرية تمتلكها اللغة على لسان الشاعر أو الأديب الموهوب.

والرمزية في القرآن هي تلك الرمزية العامة التي تحقق الأغراض الدينية والتربوية، من خلال ملامح لغوية وتصويرية وإنسانية. ومن مظاهر الرمزية القرآنية أساليب الإيجاز والمجاز بما فيه من تشبيه واستعارة وكناية.

ومن أنواع الرمز، ما يسمى بالرمز اللغوي. وهذا ما استفاد منه الشعراءالإحيائيون، كقول الشاعر:

أَبَنْتَ لنا التنزيل حكماً وحكمةً وفرّقت بين النور والظلمات[3]

وهناك الرمز الموضوعي، وهو الأعلام والشخصيات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، في سياق القصة القرآنية. وقد استخدم الشعراء الإحيائيون هذه

[1] معروف الرصافي – ديوان الشاعر الرصافي – ط ٣ – ١٩٤٩ – ص : ٢ – دار الكتاب العربي بمصر
[2] جريدة "الراية" ، التاريخ : ٠١/٣ / ٢٠١٥
[3] حافظ بك إبراهيم – ديوان حافظ إبراهيم – ط ٣ – المطبعة الأميرية بالقاهرة - ١٩٤٨

الأعلام في شعرهم، بحيث تحولت إلى دلالات رمزية في الشعر في كثير من المواضع.

وهناك ملاحظات مهمة على كتاب ألّف في أثر القرآن في الشعر العربي لشلتاغ عبود شراد هو الكتاب المسمى بـ" أثر القرآن في الشعر العربي الحديث" ، ولا شك أن هذا الكتاب جديد في هذا المجال :

أوّلا ـ لعلّه كان من الأفضل ـ توخياً للدقة ـ تغيير عنوان الكتاب بحيث يشير إلى الشعر المعاصر ـ لا الشعر الحديث ـ لأن المؤلِّف يرمي إلى دراسة الشعر العربي في الفترة الحاضرة، وهو ما يطلق عليه اسم الشعر المعاصر.

ثانيا ـ إن اقتصار الكتاب على الاستشهاد بستة شعراء فقط، لا يكفي لتقديم دراسة شاملة عن تأثير كتاب الله في الشعر العربي.

ثالثا ـ لماذا لم يقدّم المؤلِّف شرحاً كافياً ـ ولا لمحة واضحة ـ لمصطلح الشعر الإحيائي، خصوصاً وأنه تعبير متداول.

الفصل الرابع

الخطابة والأمثال القرآنية

وإلى جانب الشعر أخذت الخطابة تثبت أقدامها لحاجة المسلمين إليها عصرئذ، وبدأت تسير في طريق النماء والنضج بشتى أنواعها وفي حين توارى سجع الكهان ظهرت مكانة الخطابة الدينية، فكان الرسول ، يخطب في المسلمين موضحاً لهم شؤون عقيدتهم. وجاء الخلفاء الراشدون بعده فساروا على نهجه، وكانوا يعظون المسلمين في خطبهم ويحضونهم على مكارم الأخلاق. وقد احتلت الخطابة الدينية المنابر وحلقات المساجد منذ ذلك العصر، وكثر الوعاظ والقصاص .

وفي الوقت عينه ظهرت الخطابة السياسية التي تدور حول شؤون الحكم وسياسة الرعية، واستخدمت أول الأمر فيما نشب من خلاف بين المسلمين حول الخلافة إثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت الخطب التي ألقيت في سقيفة بني ساعدة باكورة الخطب السياسية. وبعد مقتل عثمان وافتراق المسلمين إلى شيعتين إحداهما تناصر علياً، والثانية تناصر معاوية بن أبي سفيان عظم شأن الخطابة السياسية، على أن هذه الخطابة لم تتألق وتزدهر إلا في العصر الأموي .

وإلى جانب هذين اللونين من ألوان الخطابة ظلت للخطابة الحفليّة مكانتها، ولاسيما خطب الوفود، فإذا وفد قوم على الرسول أو على خلفائه من بعده أحضروا معهم خطباءهم ليتحدثوا بلسانهم ويفاخروا بهم .

وفن ثالث بدأ يحبو في عصر صدر الإسلام ويخطو خطواته الأولى في طريق النضج هو فن الترسل، فإن قيام الدولة الإسلامية استدعى وجود كتاب يوجهون

الرسائل إلى العمال والقبائل في مختلف أقطار الدولة، فكان للرسول كتابه كما كان لخلفائه وولاتهم من بعده كتابهم. ومن الكتاب الذين استعان بهم الرسول ، لكتابة الوحي وكتابة الرسائل علي ابن أبي طالب وأبان بن سعيد، وخالد بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت.

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم , اذ لم يتح لامة من الامم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلغة والتاثير في النفوس والقلوب , سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الاحد وعظمته وجلاله , او عن خلقه للسموات والارض , او عن البعث والنشور , او حين يشرع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين :الدنيا والاخرة .

وكان رسول الله (ص) لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم , سواء كانوا من انصاره ام كانوا من أعدائه , فقد روى الرواة ان الوليد بن المغيرة الذي كان من الد خصومه سمعه يتلو بعض آي لذكر الحكيم , فتوجه الى نفر من قريش يقول لهم : والله لقد سمعت من محمد كلاما ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن , وإن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة , وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق .وواضح أنه شعر بدقة تلك الآيات القرآنية وبمدى تباينها عن كلام الإنس من فصحائهم كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهانهم .إنه ليس شعرا موزونا ,مما كان يدور على ألسنة شعرائهم , ولا سجعا مقفى مما يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم .انما هو نمط وحدة فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس , وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ روحا وعذبة . إنه نمط باهر ,بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته , يقول جل ذكره : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

وهكذا كان القران من أقوى البواعث على النشاط الأدبي في العصر الاسلامي وما تلاه من العصور الأخرى . اذ تراه مصدر الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية التي ازدهرت في الحواضر الاسلامية , وحسب القارىء أن يذكر أن عمل علماء اللغة

والبيان كان دعوة الى غاية : هي الإيمان بإعجاز القرآن , ولم يقف أثر القران الكريم عند إحياء العلوم الأدبية , وانما أثر تأثيرا بينا في أساليب الخطباء والكتاب ، حتى دون المتقدمون أن الروح القرآني كان يظهر على لسان أبي إسحق الصابي الذي كان صاحب الرسائل البليغة في القرن الرابع الهجري وعلى سنان قلمه البليغ.

واذا كنا قد عرضنا في غير هذا الموضع لأثر القرآن الكريم في النثر الإسلامي فان الحديث هو الآخر أثرا فيه , وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم , لانه دونه في البلاغة , هوإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وافصحهم يمكن ان نلاحظ أثره في أنه أعان القرآن في انتشار العربية , وفي حفظها وبقائها فضلا عن أثره في رقي الخطابة ونشاة الكتابة التاريخية لا في السيرة النبوية ، بل أيضا في كتب التراجم وكتب التاريخ .

لقد كان الأدب النبوي –ومازال – يجسد حلقة وصل بين إفادته من القرآن الكريم وبين إفادة الشعراء والخطباء من الأدب النبوي ،والأدب القرآني بطبيعة الحال . لذلك جاءت الخطابة والرسالة اوضح نموذجين يجسدان افادتهما من الأدب النبوي الذي سن قواعد خاصة في الخطابة والرسالة من حيث افتتاحهما بالتحميدات مثلا ، وبالاقتباسات القرانية ونحو ذلك , مضافا الى الشعر الذي افاد بدوره منهما : لغة ومضمونا .

ويمكن القول أن الإفادة من القرآن الكريم تمثلت في الاقتباس والتضمين فكريا ، وفنيا ، كما تمثلت – بالنسبة للأدب النبوي – في وضوح اللغة والبناء الفني للخطبة أو الرسالة وغيرها.

إن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف قد أسهما في اثر النصوص النثرية والإسلامية من بلاغة ومعان وتراكيب فنية وتعاليم اسلامية ، فالقرآن الكريم كان يذكر أصول الدين الاسلامي من صلاة وصوم وزكاة وغير ذلك ، يذكرها مجملة والحديث النبوي يتكفل بتفصيلها على الناس .

إلى جانب ان الحديث النبوي الشريف قد شرع بنية إسلامية في الخطابة والكتابة

، ففي الخطابة يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بالبسملة والحمدلة ثم الموضوع ويختمها بالدعاء والحمد وقد اختار للخطابة ملبسا وهيئة تجذب قلوب السامعين وهذه أمور لاعهد للجاهلية بها , كذلك الكتابة (الرسائل),فقد كان الجاهلية تكتب في اول كتبها (باسمك اللهم ، ثم تكتب من فلان إلى فلان ، و يمضون في الغرض، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة ثم يقول : - من محمد رسول الله إلى فلان, ويبتدئ صدورها غالبا بالسلام عليكم , او السلام على من اتبع الهدى ويثني بالتحميد بعد السلام فيقول : اني أحمد الله إليك الذي لاإله إلا هوويتخلص من صدور الكتاب تارة ب(أما بعد) واخرى بغيرها , وكان يختمها غالبا بالسلام عليكم ورحمة الله .

الفصل الخامس

كتاب "نـهج البلاغة " وأسلوبه القرآني

نـهج البلاغة

اسم واضعه الشريف الرضي على كتاب جمع فيه المختار من كلام الإمام علي بن أبي طالب في الخطب والمواعظ والحِكَم وغيرها. ويعد جمع نهج البلاغة من أبرز ما تركه الشريف الرضي. اشتمل الكتاب على عدد كبير من الخطب والمواعظ والعهود والرسائل والحكم والوصايا والآداب، توزعت على ٢٣٨ خطبة، و ٧٩ رسالة و ٤٨٩ قول يرى الشيعة في الكتاب أنه أحد الكتب الهامة التي يجب على الشيعي قراءتها والأخذ منها والتعلم منها بل إن الخميني قائد الثورة الإسلامية في إيران كان من وصيته قبل موته للشباب أن يحافظوا على قراءة نهج البلاغة .

وكتاب نهج البلاغة يحتوي على معارف راقية في التوحيد، مثل إلهية سامية، نصائح ومواعظ، بيان وتحليل للأحداث السياسية والاجتماعية، عهود للولاة وتنبيههم وغير ذلك.

بعد مقدمة قصيرة، يضع المؤلف كلام علي في ثلاثة أقسام: الخطب والكتب والحكم، مضيفاً إليه ـ كلما اقتضى الأمر ـ توضيحات مختصرة مفيدة. وقد احتوى نهج البلاغة على ٢٤١ خطبة، و٧٩ كتاباً، و٤٨٠ حكمة من حكم علي.

حاول السيد الرضي في نهج البلاغة ـ كما يشير اسم الكتاب ـ إلى انتقاء أبلغ وأجمل الأحاديث المروية عن علي ليضعها في هذا الكتاب. وهذه الخصوصية هي سر بقاء الكتاب وخلوده على الرغم من أحداث التاريخ العصيبة وسبب شهرته بين مختلف الفرق الإسلامية والشخصيات غير الإسلامية.

عدّ بعض الباحثين نحواً من ٣٧٠ مؤلفاً حول نهج البلاغة من الشرح والتفسير والترجمة وغيرها، وقد طبعت إلى الآن نحو من خمس عشرة ترجمة لنهج البلاغة. وهذا ما يوضح إلى حد ما مكانة الكتاب وقيمته بين المسلمين. هناك ترجمات فارسية كثيرة لنهج البلاغة، يمكن أن نذكر من أشهرها ترجمة السيد علي نقي فيض الإسلام والدكتور السيد جعفر شهيدي.

حاول بعض الباحثين جمع ما لم يأت به الرضي في نهج البلاغة من كلام الإمام. وأهم هذه المحاولات هو نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة. هذه المجموعة جمعها الشيخ محمد باقر المحمودي في ثمانية مجلدات. هناك معاجم ألفاظ وموضوعات لنهج البلاغة سهلت البحث والرجوع إليه. كما تم إعداد بعض البرامج الكمبيوترية لنهج البلاغة وبعض شروحه. من أشهر تحقيقات نهج البلاغة تحقيق محمد عبده وصبحي الصالح .كما يشتهر في اللغة الفارسية تحقيق فيض الإسلام.

القرآن :الكتاب السماوي الوحيد بين يدي الإنسان

لو أردنا التطرّق لكل ما جاء حول القرآن في نهج البلاغة فإنّ البحث يطول كثيراً ، فلقد تناول الإمام علي رضي الله عنه في أكثر من عشرين خطبة في نهج البلاغة وصف القرآن ومنزلته ، وقد يختص أكثر من نصف خطبة أحياناً لبيان منزلة القرآن ودوره في حياة المسلمين ، وواجبهم إزاء هذا الكتاب السماوي ، ونحن نكتفي هنا بتوضيح بعض توصيفات نهج البلاغة بشأن القرآن الكريم.

يقول الإمام علي رضي الله عنه في الخطبة ١٣٣ : (وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لا يَعْيَى لِسَانُهُ)[١] ، فالقرآن في متناولكم وأمامكم ، وعلى العكس من الكتب السماوية لسائر الأديان من قبيل كتاب النبي موسى والنبي عيسى (عليهما السلام)

[١] نهج البلاغة

فإنّ القرآن بين أيديكم ، وحري القول إنّ الكتاب المقدس لم يكن في متناول عامة الناس في الأُمم السابقة ، لا سيما يهود بني إسرائيل ، بل كانت هنالك نسخ معدودات من التوراة موجودة عند علماء اليهود ، ولم يكن بمقدور عامة الناس مطالعة التوراة .

وكان الوضع وما زال أكثر مدعاة للقلق فيما يخص كتاب النبي عيسى (عليه السلام) ؛ لأنّ ما يعرف اليوم بالإنجيل في أوساط المسيحيين ليس بذلك الكتاب الذي نزل على النبي عيسى المسيح (عليه السلام) ، بل هي مضامين جُمعت على أيدي أشخاص ، وعرفت بالأناجيل الأربعة ، وعليه فإنّ الأمم السابقة كانت محرومةً من الوصول إلى الكتب السماوية ، لكن الوضع مختلف بشأن القرآن ، فلقد كانت كيفية نزول القرآن وقراءته وتعلّمه من قِبل النبي الأكرم بنحو كان الناس يستطيعون تعلّمه وحفظ آياته ، وأن يكون القرآن في متناولهم بشكل كامل.

ومن الخصائص المهمة الأخرى لهذا الكتاب السماوي ، هي أنّ الله سبحانه وتعالى مَنَّ على الأمّة الإسلامية ، وتعهد بنفسه الحفاظ على القرآن الكريم من أي خطر ، بالإضافة إلى أنّ النبي الأكرم (صلّى الله عليه وآله) اهتم بتعليم المسلمين القرآن ، وحفظ آيات الله ، بحيث أنّ عدداً كبيراً من المسلمين كانوا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله حفّاظاً للقرآن ، ويحتفظون بنسخ الآيات التي كانت تنزل تواً ، ويقومون بحفظها تدريجياً ، فكان القرآن يصبح في متناول الجميع عن طريق استنساخ هذه النسخ ، أو تناقلها من صدر حافظ إلى صدر حافظ آخر.

يقول الامام علي علي رضي الله عنه: (كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ) ، أي كتاب الله فيما بينكم وفي متناولكم ، (نَاطِقٌ لا يَعْيَى لِسَانُهُ) ، من المناسب التركيز والتأكيد على هذه العبارة ؛ إذ يصرّح علي علي رضي الله عنه أنّ هذا الكتاب ناطق لا يعتري

لسانه التعب ، فلا يملّ من الكلام ولا يتلكأ ، إنّه بناء لا تهتز أركانه ، وظافر لا تُهزم أعوانه.

حديث القرآن

من ناحية يقول الإمام علي علي رضي الله عنه في نهج البلاغة واصفاً القرآن : إنّه كتاب ناطق يتكلم ولا يعيى من الكلام ، وهو يتحدث ويدلي بكلامه بكل وضوح ، ومن ناحية أخرى يقول: إنّ القرآن ليس ناطقاً ويجب استنطاقه ، وأنا الذي أُبيّن القرآن لكم ، وجاء في بعض العبارات أحياناً أنّ القرآن (صامت ناطق) (نهج البلاغة : الخطبة ١٤٧) فما معنى هذا الكلام يا ترى ؟

يبدو أنّ هذه العبارة تبيّن نظرتين مختلفتين لهذا الكتاب السماوي ، فرؤية فيها القرآن كتاب مقدّس لكنّه صامت منزوي لا يكلم أحداً ولا لأحد علاقة به ، وفي رؤية أخرى كتاب ناطق يوجّه خطابه لجميع الناس يدعوهم لاتّباعه ، ويبشّر أتباعه بالسعادة والفلاح.

من البديهي أنّ القرآن الذي صفته التقدّس فقط ، هو كلمات وعبارات وآيات مسطورة على الورق ، يوليه المسلمون احتراماً ، ويقبّلونه ويضعونه في أفضل مكان من بيوتهم ، وقد يتلونه في المجالس أحياناً دون أن يتوجّهوا إلى حقيقته ومعناه ، إذا ما نظرنا إلى القرآن بهذه النظرة فهو كتاب صامت لا يتحدث بصوت مسموع ، ومَن يمتلك مثل هذه النظرة لن يسمع كلام القرآن ، ولن يعالج القرآن الكريم له مشكلة.

بناءً على هذا نحن مكلّفون بالتزام الرؤية الثانية ، أي أن نعتبر القرآن كتاب الحياة ، ونعدّ أنفسنا لسماع كلام القرآن الكريم ، الذي يمثّل بأسره تعاليم الحياة ، وذلك من خلال خلق روح التسليم أمام الله سبحانه وتعالى ، وفي مثل هذه الحالة يكون القرآن ناطقاً يحدّث الناس ويهديهم في كافة المجالات.
بالإضافة إلى هذا التفسير الذي قدّمناه لصمت القرآن ونطقه ، ثَمّة معنى أكثر عمقاً

لهذا الأمر ، وذلك المعنى هو ما يقصده علي رضي الله عنه ، وعلى أساس هذا المعنى الخاص يقول علي رضي الله عنه إنّ القرآن صامت ويجب استنطاقه ، وأنا الذي أُبيّن لكم القرآن ، وها نحن نتطرق لتوضيح صامتية القرآن وناطقيته بالمعنى الثاني ، وهو في الحقيقة بيان لمعناه الحقيقي.

بالرغم من أنّ القرآن الكريم كلام الله جلّ وعلا ، وأنّ حقيقة هذا الكلام الإلهي وكيفية صدوره ونزوله ليست معروفة لدينا ، ولكن بما أنّ الغاية من نزوله هداية الناس ، فإنّ هذا الكلام الإلهي قد تنزّل بحيث أصبح على هيئة كلمات وعبارات وآيات ، يتسنى قراءتها وسماعها بالنسبة للبشر ، ولكن في نفس الوقت ليس الأمر بأن تكون مضامين جميع آياته يسيرة الفهم والمنال بالنسبة للعاديين من الناس ، ويصبح بمقدور الناس أنفسهم بلوغ مقاصد الآيات دون تفسير وبيان من قِبل النبي صلّى الله عليه وآله ، والأئمة المعصومين (عليهم السلام) ، والراسخين في العلم ، منها على سبيل المثال تفصيل وبيان جزئيات الأحكام الواردة في القرآن ، وكذلك هنالك آيات مجملة في القرآن الكريم تحتاج إلى بيان وإيضاح.

بناءً على هذا ، فالقرآن صامت في الكثير من الأبعاد ، أي ليس من السهل الاستفادة منه بالنسبة لعوام الناس دون تفسير وبيان ممّن له ارتباط بالغيب وملمّ بالعلوم الإلهية.

النبي وبيان القرآن

من واجبات النبي (صلّى الله عليه وآله) إزاء الأمّة بيان آيات الله ، يقول القرآن الكريم مخاطباً النبي (صلّى الله عليه وآله) : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾[1] أي أنّنا أنزلنا إليك القرآن وواجبك أن تقرأه على الناس ، وتبيّن لهم معارفه ؛ لأنّه وكما تقدمت الإشارة القرآن كلام الله ، ورغم أنّه تنزّل كثيراً حتى ظهر بصورة كلمات وآيات ، وأصبح في متناول

[1] سورة النحل : الآية : ٤٤

المسلمين ، لكن معارفه من العمق بحيث يتعذر فهمها كثيراً بالنسبة للعاديين من البشر ؛ لذلك فإنّ القرآن من هذه الناحية صامت عند البسطاء من الناس ، ويحتاج إلى تفسير وبيان النبي (صلّى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) . وعلى هذا الأساس خاطب الله سبحانه نبيه قائلاً : (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ).

بناءً على هذا أنّ لآيات القرآن تفسيرها الخاص بها ، وهذا التفسير وبيانه وعلومه عند النبي (صلّى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) ، وهم بدورهم قد وضعوا معارف القرآن بين أيدي المسلمين ، وأسمعوا الناس بلاغ القرآن.

إذن ، القرآن بهذا المعنى ناطق ، و النبي (صلّى عليه وآله والأئمة عليهم السلام) قاموا ببيان علوم القرآن ، ولكن ينبغي الانتباه إلى أنّ القرآن يدلي بحديثه بمنأى عن ميول مخاطبه ، سواء كان مطابقاً لمنى قلب الإنسان أو مخالفاً لهواه ، ولا يحق لشياطين الإنس أن يفرضوا رغباتهم على القرآن ، ويفسّروا كلام الله بآرائهم تحت عنوان فهمهم الخاص عن القرآن. في ضوء كلا المعنيين اللذَينِ جرى بيانهما عن صامتية القرآن وناطقيته يقول علي رضي الله عنه : (ناطقٌ لا يعيى لسانُه) ، فالقرآن ناطق لا يكلّ من الحديث ، ويُسمع الناس رسالته ، ويتم الحجة على المسلمين.

في هذا المقطع من الكلام هكذا يصف علي رضي الله عنه القرآن بأنّه كلام الله بينكم ، وبلسان ناطق وبليغ يدعو الناس إلى الفلاح ويبشّر أتباعه بالسعادة ، ولا يتعب عن أداء رسالته أبداً.

يقول علي رضي الله عنه في الخطبة ١٥٧ واصفاً القرآن الكريم : (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ ، أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْحَدِيثَ

عَنِ الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ)[1] ، فهذا القرآن فاطلبوه ليُحدّثكم ، وهو لن يتحدث دون بيان وتفسير من النبي صلّى الله عليه وآله والإمام علي رضي الله عنه ، فيجب أن تتعرفوا على معارف القرآن عن لسان النبي صلّى الله عليه وسلم والإمام علي رضي الله عنه ، وتأخذوا علوم القرآن منهم.

إنّ القرآن بحر المعارف والعلوم الإلهية ، ولا يقوى على سير أغوار هذا البحر اللجّيّ المترامي الأطراف ، واقتناص جواهره التي تصنع الإنسان ، إلاّ الذين هم على ارتباط بغيب عالم الوجود ، وقد دعا الله عزّ وجلّ الناس لشق طريقهم نحو معارف القرآن السامية ، مستعينين بألطاف النبي (صلّى الله عليه وآله) وأئمة الهدى (عليهم السلام) ، ومستلهمين من علوم أهل البيت وإمداداتهم وإرشاداتهم ؛ لأنّ علوم القرآن عند أهل البيت ، وبالتالي فإنّ كلامهم كلام القرآن ، وبما أنّ الأمر كذلك فإنّ النبي (صلّى الله عليه وآله) وأهل البيت (عليهم السلام) كلهم القرآن الناطق.

على هذا الأساس الآنف الذكر يقول علي رضي الله عنه : (ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق) ، هذا القرآن وهؤلاء أنتم ، فانظروا أنّكم عاجزون عن الانتفاع بالقرآن دون بيان من الإمام علي رضي الله عنه فالإمام هو الذي يتعيّن أن يفسّر القرآن ويبيّنه لكم ، ويطلعكم على معارف القرآن وعلومه.

بإيراده لهذه المقدمة يُلفت علي رضي الله عنه الانتباه إلى القرآن من زاوية أخرى ، ويدعو الناس إلى الرجوع إلى القرآن والتدبر به إذ يقول علي رضي الله عنه "الآن حيث الإمام المعصوم هو الذي يجب أن يبيّن للمسلمين علوم ومعارف القرآن ، والقرآن بنفسه لا يتحدث والناس عاجزون عن تلقّي البلاغات الإلهية مباشرة ، فأنا الآن : أخبركم عنه ، أنا أخبركم عن القرآن وأطلعكم على علومه ومعارفه ، فاعلموا أنّ في القرآن الكريم كل ما تحتاجونه "[2] (أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْحَدِيثَ عَنِ

[1] نهج البلاغة
[2] نهج البلاغة

الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ) ، فعلم الماضي والمستقبل في القرآن ، وعلاج آلامكم وتنظيم أموركم في القرآن ، وأنتم الذين يجب أن تتولوا تنظيم أموركم ، مستعينين بالقرآن الكريم ، وبعلوم أهل البيت (عليهم السلام).

القرآن هو كتاب التاريخ

القرآن أهم وثيقة تاريخية بالنسبة للمسلمين وأتباع هذا الكتاب السماوي ؛ نظراً لأنّ القرآن يتحدث عن الوقائع التاريخية ، ويبيّن أفكار وعقائد الأقوام والأمم السالفة ونمط حياتهم ، فهو أغنى وثيقة تاريخية ، وإذا ما قورن بالكتب والمصادر التاريخية التي تفتقد السند القرآني ، فهي ليست تضاهي القرآن بقيمتها واعتبارها وإن رويت بصورة متواترة ، إذن ينبغي الاستماع إلى أخبار الماضين وقصص الأنبياء والأقوام السالفة ، والاتعاظ بها عن طريق القرآن . وعلينا نحن من خلال الرجوع إلى القرآن ، واستقراء قصص الأقوام والأمم السابقة ، استلهام العبر منها وأن ننظّم حياتنا على أساس الحق والمنهج الصحيح.

إنّ القرآن الكريم بالإضافة إلى نقله تاريخ الماضين إلينا ، ومن خلال بيانه للوقائع التي جرت عليهم ، يضعنا في أجواء حياتهم ، ويدعونا لأن نستلهم العبر والدروس ، فهو يخبرنا عن المستقبل أيضاً ، فمن البديهي أنّ الحديث العلمي واليقيني عن المستقبل ليس شأن أحد غير الله سبحانه وتعالى ، والذين يمتلكون العلم بالمستقبل بإذنه جلّ وعلا.

إنّ الله هو الذي لا معنى للمستقبل والماضي والحاضر بالنسبة إليه ، وبإمكانه الحديث عن المستقبل والإخبار به ، وهو القادر على توضيح الطريق لعباده كيف يعملون ليبلغوا السعادة ، إنّه القرآن الذي يخبر بما مضى وما سيأتي ويطلع البشر

به؛ لذلك يقول علي رضي الله عنه :" أَلا إنّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي"[1] ، أي اعلموا أنّ في القرآن الكريم علم ما يأتي وما م .

دور القرآن في الحياة

يصف علي رضي الله عنه القرآن بأنّه مفتاح لعلاج جميع المشكلات فيقول علي رضي الله عنه في وصفه : (ودواء دائكم، ونظم ما بينكم)[2] ، ففي القرآن دواء لآلامكم والسبيل لحل مشكلاتكم وتنظيم أموركم ، إنّ القرآن دواء فيه شفاء لجميع الأمراض ، وبوجود القرآن تتلاشى الآلام والمتاعب ، فلابد من قراءة هذه الوصفة التي فيها الشفاء ، ومطالعتها بدقة والتعرف على سبيل علاج الأدواء ، والمشكلات الفردية والاجتماعية.

من البديهي أنّ الكلام عن العلاج قبل الشعور بالألم والمشكلة يُعد أمراً خارجاً عن المسيرة الطبيعية ، فلابد أَوّلاً من معرفة الأمراض الفردية والاجتماعية وتشخيصها ، من خلال استقراء الآيات القرآنية الكريمة ، والتدقيق بها ، ومن ثَمّ المبادرة لعلاجها من خلال استخدام هذه الوصفة الشافية.

إنّ في مجتمعنا اليوم الكثير من المشكلات سواء كانت فرديةً أو اجتماعيةً ، والجميع يصبو لإزالتها وبالرغم من تحقّق تقدم ملفت في مختلف المجالات ، فقد بقيت مشكلات جمّة ما فتئ المسؤولون يسعون لعلاجها بأي شكل من الأشكال. في هذه الخطبة يقول علي رضي الله عنه : (ودواء دائكم ونظم ما بينكم) ، فالقرآن وصفة لعلاج دائكم ومشكلاتكم ، وفي الخطبة ١٨٩ يعبّر علي رضي الله عنه قائلاً : وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ (أي أنّ القرآن دواء لا يبقى معه داء).

الأمر الذي ينبغي الالتفات إليه قبل كل شيء هو الإيمان بقول علي رضي الله عنه ، أي يجب أن نعتقد بكل كياننا أنّ العلاج الحقيقي لأمراضنا ومشكلاتنا الفردية منها

---

[1] نهج البلاغة
[2] نفس المرجع

والاجتماعية يكمن في القرآن ، ونحن جميعاً نعترف بهذا الأمر لكن مراتب الإيمان واليقين لدى الناس متفاوتة ، فرغم أنّ هنالك أناساً يعتقدون بكل كيانهم أنّهم إذا ما اقبلوا على القرآن واستعملوا معارفه وإرشاداته ، فإنّ القرآن وصفة شافية لجميع الأمراض ، لكن أمثال هؤلاء نادرون ، ولعلّ من أعظم المشكلات التي يعانيها مجتمعنا هي ضعف الإيمان بهذا الأمر ، وهذا ما أدى إلى أن تبقى الكثير من المشكلات على حالها ، ونتيجةً للجهل أو انحراف الفكر ربّما ينبري أناس لإثارة هذه الفكرة الضالة : من أنّه رغم أنّ القرآن بين أيدينا ونحن ندّعي اتّباعه فلماذا لم تُعالج مشكلاتنا ، وما فتئ الناس يكابدون المصاعب الاقتصادية ، من قبيل التضخم والغلاء ، وآلاف المشاكل الفردية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية ؟

القرآن دليل الخطوط العامة

يبدو أنّه من السذاجة أن يتوقع أحد أن يقوم القرآن بالحديث عن الأمراض والمشاكل الفردية والاجتماعية ، واحدة واحدة ، كما في الكتب الخاصة بعلاج المشاكل ، ومن يقدّم توضيحاً لعلاجها بالتسلسل ، إنّ للقرآن شأناً بالمصير الأبدي للإنسان ، وهدفه فلاح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة ، وبهذا الصدد فإنّ القرآن الكريم يقدّم لنا الخطوط العامة ، التي نستطيع من خلال تفعيلها أن نحيى حياة ملؤها السعادة ، فهذه الخطوط العامة مصابيح تؤشّر لنا اتجاه المسير والحركة ، ولكن ينبغي أن ننتبه إلى أنّ الله عزّ وجلّ وضع تحت تصرّف الإنسان وسيلتين ؛ لبلوغ السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وعلاج المشكلات وإقامة المجتمع الحضاري ، وفي نفس الوقت الديني والإسلامي ، أحدهما الدين والآخر العقل.
إنّ القرآن يوضّح الخطوط العامة لرقي الإنسان وتكامله ، والمجتمع الإسلامي مكلّف بتمهيد الأرضية لتحقيق أهداف القرآن السامية ، وذلك بقوة الفكر والعلم والاستعانة بالتجارب العلمية للإنسان ، والقرآن لا يكتفي بعدم النهي عن الاستعانة بالتجارب العلمية للآخرين ـ حتى غير المسلمين ـ بل يعتبر العلم وديعةً إلهية ويحثّ المسلمين على تعلّمه ، ولغرض ترغيب المسلمين وتشجيعهم على طلب العلم يقول

النبي (صلّى الله عليه وآله) : " اطلبوا العلم ولو بالصين "[1] ، فتعلّموا العلم واستثمروا التجارب العلمية للآخرين ، و إن استلزم تحقّق ذلك قطع طريق طويل جداً ، وبطبيعة الحال أنّ العلاقات الدولية اليوم في غاية التعقيد ،والدول الاستكبارية والقوى السلطوية تحاول من خلال شتى الألاعيب ، ومختلف الوسائل التكنولوجية والاقتصادية ، عبر الاستفادة بشكل عام من نتائج التجارب العلمية للإنسان ، أن تفرض علاقاتها السلطوية ، ولكن يتعيّن علينا أن نستثمر وبذكاء حاد ودون أدنى تراجع عن أهدافنا الإسلامية والقرآنية ، ثمار العلوم البشرية في مختلف الأصعدة في طريق إنعاش الوضع الاقتصادي ، وعلاج المشكلات المعاشية للناس.

بناءً على هذا أنّ القرآن لم يكن ،وليس بصدد الإجابة على جميع المشاكل الحياتية للإنسان صغيرها وكبيرها ، بل هو يبيّن الخطوط الجوهرية والعامة لسعادة الإنسان وتكامله ، ويدلّ المسلمين عليها ويدعوهم إليها.

[1] العلامة محمد باقرالمجلسي - بحار الأنوار : ج ١ ، ص ١٧٧، ١٩٨٣- مكتبة الزهراء للكتب المصورة

Shafeeq Rehman, P. “The Parables and Similes of the Holy Qur’an and its impacts in the Arabic literature with special reference toThafseer Al Kasha’f”.Thesis, Department of Arabic, Farook College, University of Calicut, 2018.

الباب الخامس

دور القرآن الكريم في تطور اللغة العربية وآدابها.

الفصل الأول :- علم البلاغة والأمثال القرآنية

الفصل الثاني : - إعجاز القرآن الكريم ومظاهره في آيات الأمثال

الفصل الثالث : - :التفوق اللغوي للقرآن الكريم

الفصل الرابع : - صفاء اللغة العربية وصفاء القرآن الكريم

الفصل الأول

علم البلاغة والأمثال القرآنية

البلاغة: جمال العرض وسمو المعنى

من المعروف أنَّ البلاغة عبارة عن خروج الكلام مطابقاً لمقتضى الحال. فلو كان المقام مقتضياً للتأكيد أو الإطلاق، و ذكر المسند والمسند إليه أو حذفهما، والإيجاز أو الإطناب، وغير ذلك، جاء الكلام مطابقاً له. وقد أسهب علماء المعاني في تبيين مقتضيات الأحوال، على وجه لم يدعو لقائل مقالاً.

وقد اهتمّ بعض من كتب في الإعجاز، بأمر البلاغة أزيد من غيرها. حتى أنّ الخطابي قال: "وذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أنّ وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة، ولكن صعب عليهم تفصيله"[1].

غيرأنّا ركّزنا على أنّ البلاغة بهذا المعنى، ترجع إلى عرض المقصود بشكل مطلوب، ومفيد في تحقق غرض المتكلم، ولكنه لا يكفي في توصيف الكلام بالبلاغة ما لم يضم إليه قيد آخر، وهو كون المعنى سامياً ورفيعاً، وقابلاً للذكر والإفادة، وإلاّ فالمعاني المبتذلة، وإن أُلبست أجمل الحُلي، و عرضت بشكل يقتضيه الداعي إلى التكلم، لا توصف بالبلاغة، وعلى فرض صحة التوصيف، لا يكون مثل ذلك الكلام أساساً للإعجاز، ولا دعامة له. ولأجل ذلك قلنا إنّ التعريف الصحيح للبلاغة هو عبارة عن تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة فصيحة، مع ملائمة كل كلام للموطن الّذي يقال فيه.

وعلى ضوء ذلك، فالكلام الساقط عن الإعتبار من حيث المضمون، لا يتّصف بالبلاغة، مثل ما حكي عن مسيلمة الكذّاب حيث أقسم بالطاحنات، وقال "والطاحنات

[1] الإتقـــان في علوم القرآن

طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزا"[1]. فأين هذه المفاهيم الساقطة السوقية الركيكة الفاقدة لأيّةِ قيمة، من المعاني العالية السامية الواردة في قوله سبحانه:

وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾[2]

فاللازم في البحث عن فصاحة القرآن، التركيز على أمرين:

١ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال.
٢ـ سمو المعاني وعلو المضامين.

الأول: مطابقة الكلام لمقتضى الحال

إنّ استقصاء جميع الأحوال الّتي يقع الكلام مطابقاً لها، راجع إلى علم المعاني، من علمي الفصاحة والبلاغة فذكروا مقتضيات الأحوال في أبواب الإسناد الخبري، والمسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل، والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز، والإطناب والمساواة، فذكروا الأحوال الطارئة على الكلام ومقتضياتها، من ذكر المسند إليه وحذفه، وتنكيره، وتقديمه وتأخيره، وتوصيفه وتأكيده، إلى غير ذلك من الأحوال الطارئة على المسند إليه، وبشكل على المسند، ولكل مقام. كما أنّ لكل من الإيجاز والإطناب والمساواة مقام.

ثم إنّ دراسة القرآن من حيث كونه مطابقا ً للأحوال المقتضية، يحتاج إلى تفسير حافل، يفسّر القرآن من هذا الجانب، ولعلّ "الكشاف" أحسن ما كتب في هذا الموضوع، فقد ذكر الزمخشري فيه، النكات البلاغية، في تفسير الآيات، وبذلك أثبت للقرآن إعجازاً بيانياً خاصاً، وأنّ كل آية بل كلّ كلمة واردة موردها.

[1] مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية- ط٨ – ج١ – ٢٠٠٥ – دار الكتب العربي -بيروت
[2] سورة العاديات : الآيات ١ -٣

ولما كانت الإحالة على مثل هذا الكتاب وغيره، عن المحذورغير خالية، نأتي بنماذج تثبت بلاغة القرآن، وورود آياته وفق مقتضى الحال، ونختار لذلك سورتين قصيرتين،من السور المكية، النازلة في أوائل البعثة ، سورة الكوثر وسورة الضحى.

١ـ بلاغة سورة الكوثر

روى المفسرون أنّ العاص بن وائل السهمي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من المسجد، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدّثا، وأُناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فقالوا: من الّذي كنت تتحدث معه. قال: ذلك الأبتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر، فسمته قريش عند موت ابنه أبتر، ومبتورا، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات:

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾[١]

قال الزمخشري، في رسالته حول إعجاز سورة الكوثر: "أُنظر، كيف نُظمت النظم الأَنيق، ورُتِّبت الترتيب الرشيق، حيث قدّم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها، وما يقطع الشبهة ويقلعها (**إنّا أعطيناك الكوثر**)، ثم لِما يَجبُ أَنّ يكون عنه مسبَّباً وعليه مترتباً (**فصل لربك وانحر**)، ثم ما هو تتمة الغرض من وقوع العدو في مُغَوّاتِه الّتي حفر، وصَلْيه بحرف ناره الّتي سَعَر (**إنّ شانئك هو الأبتر**)"[٢].

(إنّا)

تأَمَّل كيف من أُسند إليه إسداء هذه العطية والموهبة السنية (الكوثر)، هو ملك السموات والأرض، ومالك البسط والقبض. فدلّ بذلك على عظمة المعطي والمُعْطَى، المعلوم أنّه إذا كان المعطي كبيراً، كان العطاء كثيراً. وجمع ضمير المتكلم، فأعلم

[١] سورة الكوثر
[٢] الكشاف – الجزء الرابع

بذلك عظم الربوبية.

(أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)

استعمل لفظ الماضي مكان المستقبل، مع أنّ الكوثر كما يتناول عطاء العاجلة، يتناول عطاء الآجلة، وذلك لأنّ المُتوقَّع من سيب الكريم، تحققه على وجه القطع والبت. وجاء بالكوثر محذوف الموصوف، لأنّ المثبت ليس فيه ما في المحذ وف من فرط الإبهام والشياع. واختار الصفة المؤذنة بإفراط الكثرة، المُبِينة عن المعطيات الوافرة، وصدّرها باللام لتكون كاملة في إعطاء معنى الكثرة.

والمراد من الكوثر، أولاده حسماً للشبهة، وقطعاً لدعوى الخصم.

(فَصَلِّ)

عَقَّب إبهامه الكوثر، بالفاء، ليكون دليلاً لمعنى التسبيب، فالعطاء الأكثر، يستلزم الشكر الأوفر.

(لِرَبِّكَ)

وقصد بذلك، التعريفَ بدين "العاصي" وأشباهه، ممّن كانت عبادته ونحره لغير إلهه، وبالتالي لتثبيت قدمي رسول الله على صراطه المستقيم وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم.

وقال: "لربك" ولم يقل " لن"، فصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر، إظهاراً لكبرياء شأنه، وإنافةً لعزّ سلطانه. ومنه أخذ الخلفاء قولهم: يأمرك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة، وينهاك أمير المؤمنين عن مخالفة الجماعة. وعلّم، بالأمر بالصلاة للرب، أنّ مِنْ حَقِّ العبادة أن يَخُصَّ بها العبادُ ربَّهم ومالكهم، ومن يتولى معايشهم ومهالكهم. وعرّض بخطأ من سفّه نفسه، ونقض لبّه، وعبد مربوباً، وترك عبادة ربّه.

(وانْحَرْ)

أشار بالأمر بالنحر، بعد الأمر بالصلاة، إلى قسمين من العبادات، فالقسم الأول عمل بدني، والصلاة إمامها. والثاني عمل مالي، ونحر البدن سنامُها. ونبّه على ما

لرسول الله من الإختصاص بالصلاة الّتي جعلت لعينه قُرّة، وبنحر البدن الّتي كانت همته متطاولة إليها. قال: **"وانحر"**، ولم يقل "وانحر له"، رعايةً لفواصل الآيات، وهو أمر مطلوب إذا سيق المتكلم، إليه، بلا تكلّف.

(إنّ شانِئَكَ)

عنى بالشانئ: "السهمي". وإنمّا ذكره بوصفه لاباسمه، ليتناول كلّ من كان مثل حاله. وأعرب بذلك عن أنّ عدوه لم يقصد بوصفه بالأبتر، الإفصاح بالحق، ولم ينطق إلاّ عن الشنآن الّذي هو توأم البغي والحسد، وعن البغضاء الّتي هي نتيجة الغيظ، فبذلك وسمه بما ينبئ عن المقت الأشدّ، ويدلّ على حنق الخصم الألدّ.

(هُوَ)

أقحم الفصل لبيان أنّه المُعَيَّن لهذه النقيصة (الأبتر)، وأنّه المُشَخَّص لهذه الغميصة.

(الأَبْتَر)

عرّف الخبر، ليتمّ له البتر. فسبحان من أعجز فصحاء العرب والعجم، عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها، مع تحدّيه إيّاهم بذلك، وحرصهم على بطلان أمره، منذ بعث النبي إلى يومنا هذا.

وسبحان من لو أَنزل هذه الواحدة وحدها، ولم ينزل ما قبلها وما بعدها، لكفى بها آية تغمر الأذهان. ومعجزة توجب الإذعان، فكيف بما أنزل من السبع الطوال.

٢ـ بلاغة سورة "والضحى"

جرت حكمته سبحانه على نزول الوحي تدريجياً، لحكمة صرّح بها سبحانه في قوله:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾

[1] سورة الفرقان : الآية : ٣٢

ولأجل وقوع الفترة بين نزول الوحي، عابه المشركون على النبي الأكرم، فقالوا: إنّ محمداً قد ودعه ربُّه وَقَلاه، ولو كان أ مره من الله لتتابع عليه، فنزلت السورة التالية وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾.[1]

إنّ في هذه السورة من أنواع البلاغة ما يَبْهَرُ العقول، وفي الدراسة التالية نشير إلى بعض منها.

(**وَالضُّحَى* وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى**) الواو في الموضعين للقسم. والضحى، والليل حال السجي، هو المقسم به. وقوله سبحانه فيما يأتي: (**مَا وَدَّعَكَ**) هو المقسم له، بمعنى جواب القسم. وقد ورد في القرآن الكريم، ثمان وثلاثون قَسَماً، أفردها إبن القيم بالتصنيف في كتاب أسماه "التبيان في أقسام القرآن". وقد وقع القَسَم فيها على أشياء مختلفة كالملائكة والنبي الأكرم والقرآن والقيامة، والنفس الإنسانية، والقلم، والكتاب والشمس، وضوئها، والليل وغير ذلك. واهتمّ المفسرّون ببيان سرّ القسم بهذه الأُمور، ولكنهم غفلوا عن مهمة أُخرى في هذه الأقسام، وهي المناسبة بين المقسم به والمُقْسَم له، أي بيان الصلة بين الشيء الّذي وقع الحلف عليه، كالنَّهار والليل، وما رتب عليه من الجواب. وهذا من الأُمور المهمة الّتي إذا كشفها المُفَسر، لأدرك أنّ تخصيص

[1] سورة الضحى

شيء معين بالقَسَم في هذا المجال دون غيره، ليس إلاّ لرابطة بينه وبين جوابه، وليس هو أمراً إعتباطياً فاقداً للمناسبة. وإليك البيان في المقام.

إنّ المُقْسَم به في آية "والضحى"، صورة مادية، وواقع حسيّ يشهد به الناس تألّق الضوء في صحوة النهار، ثم يشهدون من بعده فتور الليل إذا سجى وَسَكَن، يشهدون الحالين معاً في اليوم الواحد دون أن يختل نظام الكون أ و يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكار. بل دون أن يخطر على بال أحد، أنّ السماء قد تخلّت عن الأرض، وأسلمتها إلى الظلمة، والوحشة بعد تألّق الضوء في ضحى النهار.

فإذا كان هذا حال الفيض المحسوس، الّذي به حياة البشر، فهكذا حال الفيض المعنوي، فينزل الوحي ويغرق المجتمع في بهاء نوره، ثم يسكن، فلا عجب في أن يجي بعد أُنس الوحي، وتَجَلّي نوره على النبي الأكرم فترة سكون يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي، يوافي بعد الضحى المتألق. فإذن، القَسَم بالضحى، وبالليل إذا سجى، بيان لصورة حسيّة، وواقع مشهود، يمهّد لموقف مماثل لكن غير حسّي ولا مشهود، وهو فتور الوحي بعد إشراقه وتجلّيه.فعند ذلك، يتجلّى تخصيصهما بالقسم دون غيرهما ممّا ورد في القرآن من الأمور المقسم بها. كما يتّضح أنّ نزول الوحي تدريجاً، ليس دليلاً على أنّه سبحانه ترك نَبِيَّه أو قَلاه. وذلك لأنّ فتور الوحي، كنزول الليل بعد الضحى، فكما هو ليس دليلاً على تخلّي السماء عن الأرض، وتسليمها إلى الظلمة، فهكذا نزول الوحي نجوماً، ليس دليلاً على أنّه سبحانه تخلّى عن رسوله، وتركه بين أعدائه أو قلاه.

وبذلك يظهر إتّقان جواب القسم أعني قوله سبحانه:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

ومن لطائف ما ورد في الجواب هو أنّه حذف المفعول من قوله: **(وما قلى)**، ولم يقل: "قَلاَكَ". وليس ذلك رعاية للفاصلة، لأنّه عَدَلَ عن رعايتها في آخر سورة الضحى،

حيث قال : (**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**)[1]إذ ليس في السورة، حرف الثاء على الإطلاق، وكان بوسعه أن يقول مكان حَدِّث، فَخَبِّر، لتتفق الفواصل على مذهب أصحاب الصنعة. فهذا دليل على أنْ الحذف لوجه آخر، كما أنّ العناية بذكر بلفظة "حدّث"، مكان "خَبَر"، لنكتة موجودة في الأولى دون الثانية.

والظاهرة أنّ حذف المفعول هو لتحاشي خطابه تعالى حبيبه المصطفى في مقام الإيناس، بقوله: "ما قلاك"، لما في القلي من الطرد، والإبعاد وشدّة البغض وهو في الوقت نفسه أَظهر المفعول في "وَدّعك"، إذ ليس فيه شيء يُكْرَه، بل هو يؤذن بالفراق على كُرْه، مع رجاء العود.(وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى)إنّ الآخرة إذا قرنت بالأولى، يراد منها اليوم الآخر، كما في قوله سبحانه: فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾[2]. وقوله سبحانه: فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾[3].

ولكن يرجح أن يكون المراد من الأخرة في الآية، هو الغد المرجو من أيام بعثته، لتخصيص كونها خيراً في الآية بالنبي الأكرم، حيث قال: (خَيْرٌ لَكَ) فالآية تبشّر بالمستقبل الزاهر للنبي الأكرم، وبهذا يتمّ تأكيد نفي التوديع والقلي، ليذهب عن الأذهان أثر فتور الوحي. والصلة بين هذه الآية وبين ما تقدمها، واضح على هذا البيان، والكلّ كسبيكة واحدة. وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾[4] اللام لتأكيد لزوم العطاء، وأنّه أمر محقَّق. (وسوف) للتراضي. والجمع بين التوكيد مع التسويف الصريح، لبيان أنّه موضع عناية ربّه في أمسه وغده، وأُولاه، وأُخراه. وأمّا العطاء الّذي يحصل به رضا النبي، فغير محدّد بشيء. وليس وراء الرضا مطمح، ولا بعده

[1] سورة النجم : الآية : ٢٥
[2] سورة النازعات : الآية : ٢٥
[3] سورة الضحى : الآية :٥

غاية، ولا حاجة لتحديد هذا الّذي يُرضي الرسول، حتى تقلّل من روعة ذاك البيان المعجز الّذي يتجلى سرّه في إطلاقه العام وانتهائه إلى الرضا.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾[1] هذه الآيات تبث في نفس الرسول الطمأنينة، وتثبت قلبه، بإلفاته إلى ما أسبغه الله عليه في أولاه، من نِعَم: كان يتيماً، فآواه، ووقاه مسكنة الُيتْم، وكان ضالاً، فهداه تعالى إلى دين الحق وكان عائلاً فأغناه الله بفضله وكرمه. أفما يكفي هذا ليطمئن كلُّ أحد إلى أنّ الله غير تاركه ولا قاليه؟ وهل تَرَكَه حين كان صبياً يتيماً متعرضاً لما يتعرض له اليتامى من قهر وضياع؟ وهل قلاه حين كان ذا عيلة؟ كلا، لا.

واليتيم مظنة الضياع والقهر، قال سبحانه: وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾[2]. وقد وجد الله محمداً يتيماً عائلاً، فأعفاه سبحانه من تلك الآثار البغيضة، وحفظ جوهره من الآفات الّتي كان معرَّضاً لها بحكم يتمه وعيلته، وبذلك تمّ فيه الإستعداد النفسي لتلقّي الرسالة الكبرى، الّتي بعث بها ليقي الناس من المذلَّة والضلال.

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾[3]

---

[1] سورة الضحى : الآية : ٦،٧،٨

[2] سورة النساء : الآية : ٩

[3] سورة الضحى : الآيات : ٩،١٠،١١

أتى بكلمة: **"فلا تقهر"**، مع أنّ في وسعه أن يستخدم كلمة أُخرى، نحو: **"فلا تظلم"**، **"فلا تمنع حقه"** وغيرهما، وذلك لأنّ في عبارة: **"فلا تقهر"**، معنى أعمق وأدق ممّا يفيده ذانك اللفظان ومشابههما، إذ يجوز أن يقع القهر مع إنصاف اليتيم وإعطائه ماله، وعدم التسلّط عليه بالأذى، لأنّ حساسية اليتيم إلى حدّ أنّه يتأثّر بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة من غير قصد. والنبرة المؤلمة بلا تنبه، و إن لم يصحبها تسلّط بالأذى، أو غلبة عل مالِه وحقِّه. ويحتمل أن يكون المراد من النعمة هو الرسالة الّتي أكرمه الله تعالى بها، وتفضل بها عليه ، وعند ذلك يكون المراد من التحدّث بها هو إبلاغ رسالة ربّه.

ثم في الآيات الثلاث الأخيرة نكتة بديعة، فإنّا نرى أنّه سبحانه قَدّم النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل، على التحدّث بنعمته تعالى، فأخَّر حَقَّ نفسه وهو التحدث بالنعمة، وقدّم حقّ اليتيم والسائل. وما هذا إلاّ لأنّه غنيّ وهما محتاجان، وتقديم حَقِّ المحتاج أُولى.وهناك نكتة أُخرى، وهي أنّه تعالى لم يرض في حقهما إلاّ بالفعل، ورضى في نفسه بالقول.

فهاتان السورتان المتقدمتان أوقفتانا على نموذج من بلاغة القرآن بمعنى المطابقة لمقتضى الحال وزيادة في بيان هذا الجانب البلاغي، نأتي بنماذج أخرى من آياته، حصل فيها تقديم وتأخير وعكس في العبارات، ممّا قد يتخيل معه أنّه تنويع وتفنن في الكلام، و لكن بالتأمّل فيها يتّضح أنّه ليس كذلك، وإنمّا اختلاف التعبير نشأ من اختلاف المقتضيات.

١ـ يقول سبحانه في سورة الأنعام : وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ[1]

[1] سورة الأنعام ك الآية : ١٥١

ويقول سبحانه في سورة الإسراء: وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾[1]

والنهي في كلتي الآيتين متوجه إلى الوالدين. ووجه الإختلاف بينهما أنّ الداعي إلى القتل في الآية الأُولى هو الفَقْرُ المُحَقَّق، السائد في حياة الوالدين، بدلالة قَوْله: (**من إملاق**). وفي الثانية هو الفَقْر المتوقع، بدلالة قوله: (**خشية إملاق**). فاختلفت حال الوالدين.

ففي الآية الأُولى، الخطاب متوجه إلى الوالدين الفقيرين، حال الخطاب، فناسب أن يبدأ وعده بالرفق بهما ثم بأولادهما.وهذا بخلاف الآية الثانية، فإنّ الخطاب فيها متوجه إلى الوالدين الميسورين المرزوقين بالفعل، ويخافان العيلة والعجز عن رزق أولادهم ولأجل ذلك كانوا يرتكبون ذلك العمل الأسود الوبيل (قتل أولادهم)، فناسب أن يبدأ وعده بالرزق، بالأولاد أوّلاً، وبالوالدين ثانياً.

٢ـ يقول سبحانه في عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة وما يكون الناس عليه من فزع وكرب: يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾[2]

وفي سورة أُخرى، في عرض مشهد من هذا اليوم، يقول: يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ

[1] سورة الإسراء : الآية : ٣١
[2] سورة عبس : الآية : ٣٤ – ٣٧

ٱلَّتِى تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ففي الآيتين ألفاظ

مشتركة، مثل "بنيه" و "صاحبته" و "أخيه". لكن قَدّم في الأُولى الأخ، فالأُم، فالأَب، فالصاحبة، فالبَنين، مبتدءً بالعزيز فالأَعز. وفي الثانية عَكَس فقَدَّم البنين، فالصاحب، فالأَخ، فالفصيلة ، فسائر الناس، مقدّماً الأعزّ فالعزيز. فما هو الوجه في هذا التقديم والتأخير؟

الجواب: إنّ الآية الأُولى تصُوّر مشهد الفرار من العذاب والبلاء، والآية الثانية تمثّل مشهد دفع العذاب عن النفس. ففي المقام الأول يتخلّى الإنسان عن العزيز فالأَعزّ، حتى لا يبقى معه شيء يمكنه أن ينخلع عنه لينجو بنفسه. فلأجل ذلك بدأ في الآية الأُولى بالأخ، فالأُم، فالأَب، فالصاحبة، فالبنين. وأمّا في المقام الثاني، فالإنسان فيه حالة الإفتداء من العذاب الشديد الرهيب، ففي هذا الحال يفدي بعض جوارحه ببعض ليدفع عنه لهيب جهنم. فإن لم ينجح، يتناول للوقاية أَقرب شيء وأحبّه إليه لعلّه ينجو، وهم البنون، فالصاحبة، فالأخ. فصار الموقفان مختلفين متباينين، فالحالة الأُولى تمثّل حركة فرار، والثانية تمثّل حركة دفاع من خطر داهم. وهذه النكتة، أوجبت اختلاف النظم بين الآيتين، وعليها جرى قول الشاعر:

ألقى الصحيفةَ كي يُخَفِّفَ رَحْلَهُ والزادَ حتى نَعْلَهُ أَلقاها [٢]

فإنّ النعل للمسافر الراجل في الصحراء، أعز الأشياء. وبما أنّ الموقف موقف حركة فرار، إبتدأَ بالقاء العزيز فالأعز حتى وصل إلى النعلين.

٣ـ يقول سبحانه: لَّا يَسۡتَوِى ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ

[١] سورة المعارج : الآيات : ١١ ـ ١٤
[٢] الشاعر الجاهلي المتلمس

وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾[1]. فَقَدَّمَ الجهادَ بالأموالِ على الجهادِ بالأنفس في مَوْردين من هذه الآية. ويقول سبحانه في آية أخرى: إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾[2]. فقدم هنا الأنفسَ على الأموال، مع أنّها واردة أيضاً في مجال الجهاد.

فهل هذا للتفنن في العبارة؟ أو أنّ الحال يقتضي في الآية الأُولى ونظائرها، تقديم الجهاد بالأموال على الأنفس، وفي الآية الثانية العكس. التحقيق هو الثاني، بل هو المتعين، لأنّ الآية الأُولى بصدد بيان جهاد المؤمنين بالأموال والأنفس، ومن المعلوم أنّ الإنسان يبتديء في الجهاد بالعزيز فالأعز، فيجاهد بماله أولاً ثم بنفسه. وأمّا الآية الثانية فهي بصدد بيان شراء الله سبحانه من المؤمنين، ومن المعلوم أنّ المشتري يبتغي الأعزّ فالعزيز، ويختار لنفسه الأغلى فالغالي. والنفوس أغلى من الأموال. والعجب أنّ القرآن راعى هذه النكتة في جميع الموارد الّتي ذكر فيها الجهاد بهما.

[1] سورة النساء : الآية : ٩٥
[2] سورة التوبة : الآية : ١١١

٤ـ يقول سبحانه حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السَّلام: رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾[1] فقدم فيها التعليم على التزكية. ولكن في موضع آخر عكس وقدم التزكية على التعليم، فقال: هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾[2]. فعكس في هذه الآية و قَدّم فيها التزكية على التعليم.

سمو المعاني

إنّ التالي لآيات الذكر الحكيم إذا كان ممعناً في تلاوته يرى في كل سورة وآية عظة وتنبيهاً، وإعلاماً وتذكيراً، وترغيباً وترهيباً، وتشريعاً وتقنيناً وقصصاً، وعبراً، وبراهين وحُجج، ترقى بروح الإنسان وتحلّق بها في سماء المعنويات. فهذه المعاني العالية السامية الدقيقة، إذا حَمَلَتْها ألفاظ فصيحة، وصِيغَتْ في نُظُم رصينة، وَرُصِّعْت بأُسلوب بديع، وأُلقيت على مقتضى الحال، بهرت العقول، وخَلَبَتْ النفوس، وسَلَّمَتْ بعجزها عن معارضته والإتيان بمثله. وقد ركّز النبي الأعظم في حديثه عن القرآن، على هذا الأمر، حيث قال: "وباطنه عميق". كما اعترف به عدوّه اللدود، الوليد بن المغيرة، حيث قال: "إنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لَمُغْدق"[3].

---

[1] سورة البقرة : الآية : ١٢٩
[2] سورة الجمعة : الآية: ٢
[3] الشيخ عبد الله النسفي – تفسير النسفي – الجزء الأول – دار القلم – لبنان – ص : ١٨٩٠

إنّ النظرة الفاحصة، في آثار الكُتّاب والمؤلفين، تدفعنا إلى القول بأنّهم لا يخرجون عن طائفتين: طائفة تهتم بتزيين الألفاظ دون العناية بسم المعنى. وطائفة أُخرى تهتم بإبداع المعاني من دون عناية بتحسين اللفظ. وقلما يتّفق من يراعي كلا الأمرين، والجمع بينهما مشكل. لأنّ الألفاظ والجمّل الخلاّبة لا تطابق الموضوعية والواقعية. فالذين يرغبون في إفهام المعاني لا يفتشون عن الألفاظ والعبارات الخلاّبة. فالجمع بين الجمالين، رهن عبقرية ونُبوغ قادرين على تحمّل عبئهما.

والقرآن الكريم أَبْرَزُ نَموذّج للقسم الثالث.فألفاظه في منتهى العُذوبة، ومقاطع الآيات وفواصلها في غاية الأناقة، والأُسلوب في منتهى البداعة، وقد ضمّ إلى هذا الجمال الظاهر، عمقاً في المعنى، لا تجد له مثيلاً في زبر الأولين وكتب الآخرين.

إن التصوير الدقيق لسمو معاني القرآن لا يتأتى إلاّ بذكر نماذج من الآيات في مجالات مختلفة مثل :

١ـ المعارف العُلْيا

يتجلى سمو معاني القرآن في مجال المعارف بشكل واضح. فقد جاء هذا الكتاب بأسمى المطالب، وأغزر المضامين، في الدعوة إلى التوحيد ورفض الأصنام، ونفي الشرك والإثنينيّة، بل في باب إثبات الصانع، وصفاته. مضافاً إلى ما جاء من المضامين الدقيقة الفلسفية في الدعوة إلى عالم الغيب، وبقاء الروح بعد فناء البدن، وحشر الإنسان وعوده إلى الحياة، إلى غير ذلك ممّا ذكرنا بعضاً منه في الجزء الأول، ونذكر بعضاً آخر فيما يأتي من المباحث. ولكن لأجل عرض نموذج منه نأتي في هذا المقام بآيات:

أـ يقول سبحانه: أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ

ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾[1].

أُنظر إلى هذا البيان الجزل، كيف يشير إلى برهان الإمكان بصورة موجزة مستحكمة لم يكن العرب ولا حكماؤهم عارفين به. وتّتضح حقيقة سمو المعنى إذا أمعنت النظر في كل شقّ من هذه الشقوق الأربعة.

ب ـ يقول سبحانه: مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾[2].

ويقول سبحانه: أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾[3]. فترى أنّه يستدلّ في هذه الآيات على التوحيد في التدبير، وأنّ النظام الجُمَلي يدار بمدبّر واحد لا غير.

ج ـ إنّ القرآن يستدلّ على إمكان المعاد وعود الإنسان إلى الحياة ثانياً بطرق مختلفة، بشكل يقنع المتحري للحقيقة، المتجرّد عن العناد. وإليك نظرة عابرة عليها . فتارة يستدلّ عن طريق عموم القدرة على كل شيء، على إمكان المعاد، ويقول: أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡيِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾[4]وأخرى عن طريق قياس الإعادة على

---

[1] سورة الطور : الآيات : ٣٥ ـ ٣٧
[2] سورة المؤمنون : الآية :٩١
[3] سورة الأنبياء: الآية : ٢١،٢٢
[4] سورة الأحقاف : الآية : ٣٣

الحياة الأولى، ويقول: كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾[1]. وثالثة عن طريق قياس إمكان إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات، ويقول: وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾[2] ورابعة عن طريق قياس قدرة الإعادة، على القدرة على إخراج النار من الشجر الأخضر، ويقول: قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾[3]. وخامسة عن طريق الإستدلال بالوقوع على إمكان العود. فإن أدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعه، ولأجل ذلك نقل سبحانه قصة بقرة بني إسرائيل وحديث عُزَيْر.

وسادسة عن طريق الإستدلال بالنَّوْمات الطويلة الّتي امتدت أكثر من ثلاثمائة سنة، فإنّ النوم أخو الموت، و لا سيما الطويل منه، والاستيقاظ منه يشبه تطور الحياة وتجددها. فهذا النوع من البرهنة على عقيدة هي كالعمود الفقري في باب العقائد، ممّا لاترى له مثيلاً في كتب الأقدمين، فإنّ هذه المعاني البديعة إذا انظمّ إليها الإستحكام في البيان، تبهر العقول وتدهش النفوس. وهذا النوع من العمق وافر في الآيات الواردة حول المعارف والعقائد، وقد اكتفينا بما ذكرناه.

٢- سطوع براهين القرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم كتاب الهداية، نزل للناس أجمعين، ليبقى خالداً على جبين الدهر يرجع إليه كل من تحرّى الحقيقة، وارتاد الواقع، ولأجل ذلك اعتمد على البراهين

[1] سورة الأنبياء : الآية : ١٠٤
[2] سورة الروم : الآية : ١٩
[3] سورة يس : الآيات : ٧٩، ٨٠

اللامعة، لا على الأساليب المعقّدة الّتي كانت ولم تزل، رائجة بين الفلاسفة. فأخذ من المسلّمات برهاناً على النظريات، ومن المشاهدات دليلاً على الحقائق غير المحسوسة، كل ذلك ببيان واضح، لا يقبل الخدش والشك. ويستلذّ به الذوق، وتستسلم له العقول. وإليك نماذج من هذه البراهين:

أولا: قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1] فلاحظ ما أحلى استدلاله على نَفْي الولد، بأنّه لو كان له وَلَدٌ كما يقول هؤلاء، فاللائق للاتخاذ ولداً، هم الأنبياء والمرسلون، الذين عبدوه، وخضعوا له، وائتمروا بأمره.

ثانيا: وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2] إذا كان الخصم معترفاً بأنّ الله هو الّذي بدأ الخلق إذن فالإعادة أهون من البدأة لأنّها من شيء، وتلك لا من شيء.

ثالثا: وقال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[3]. فقد رتّب دخولهم الجنة على ولوج الجمل في خرم الأبرة. ولما كان ذلك أمراً ممتنعاً، كان ذاك أيضاً مثله. فقد أبدى امتناع دخولهم الجنة بهذا الشكل القياسي بكناية بديعة.

رابعا: وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾[4]. فقد رتّب النتيجة على صغرى القياس مع حذف الكبرى لظهورها، وهي: أنّ من أعطاه الله الكوثر ـ وهي مجموعة المكرّمات ـ فينبغي له أن يؤدّي شكره الواجب، بالإبتهال إلى الله والمثول لديه بكل الوجود.

---

[1] سورة الزخرف : الآية : ٨١
[2] سورة الروم : الآية :٢٧
[3] سورة الأعراف : الآية : ٤٠
[4] سورة الكوثر : الآيات : ١ ، ٢

خامسا: وقال تعالى: وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ[1]. قياس استثنائي مركّب من قضيّة شرطية مضمونها: وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾[2]. وأُخرى جملة استثنائية مضمونها: وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾[3]

سادسا: وقال تعالى: فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾[4]. الكبرى مطوية، أي وَكُلٌّ آفل غير مستحق للعبادة.

٣ـ بداعة التصوير والتعبير

إنّ للقرآن طريقة موحدة في التعبير يتّخذها في أداء جميع الأغراض على السواء، حتى أغراض البرهنة والجدل، وتلك طريقة صوغ المعاني العالية في قالب التجسيم والتمثيل. ونحبّ أن نزيد المسألة إيضاحاً بالنماذج، وأنّه كيف يصوّر المعاني السامية والحالات النفسية ويبرزها في صور حسيّة، من غير فَرْق بين المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية والقصص المروية، ومشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، فيعبّر عن الكلّ كأنّها حاضرة شاخصة، ولا شكّ أنّ هذه

[1] سورة الأعراف : الآية: ١٧٦
[2] سورة الإسراء : الآية : ١٩
[3] سورة طه : الآيات : ١٢٤ـ ١٢٦
[4] سورة الأنعام : الآية : ٧٦

الطريقة تتفوق على نقل المعاني والحالات النفسية في صورها الذهنية التجريدية، ونقل الحوادث والقصص أخباراً مروية، والتعبير عن المشاهد والمناظر تعبيراً لفظياً لا تصويراً خيالياً. وإليك الأمثلة.

١ـ معنى النفور الشديد من دعوة الإيمان، يعّبر عنه بوجهين: أحدهما تجريدي، والآخر تصويري. فيقال في الأول: **"إِنَّهُمْ لَيَنْفِرونَ أَشَدَّ النِّفْرَةِ مِنْ دَعْوَةِ الإيمان"**. فيتملَّى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون. ويقال في الثاني: **فَمَا لَهُمْ عَنِ**

ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾[1]

فتشترك مع الذهن حاسة النظر، وملكة الخيال، وانفعال السخرية من هؤلاء الذين يفرون، كما تَفر حُمُر الوحش من الأسد، لا لشيء إلاّ لأنّهم يدعون إلى الإيمان. فتأخذ النفس روعة الجمال الّذي يرتسم فيه صورة شرود هذه الحمر يتبعها المرهوب.

٢ـ معنى عجز الآلهة الّتي يعبدها المشركون من دون الله يُعَبَّر عنه بوجهين: أحدهما ذهني مجرّد، والآخر تصويري.

ففي الأول يقال: "إنَّ ما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله لأَعْجَزُ عَنْ خَلْقِ أَحْقَرِ الأَشْياء". فَيَصِلُ المعنى إلى الذهن مجرّداً باهتاً.

وفي الثاني يقال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ**

[1] سورة المدثر : الآيات : ٤٩ ـ ٥١

وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾[1].

ففي الثاني أُبرز هذا المعنى بِصُوَر متحركة متعاقبة.
"لن يَخْلُقُوا ذُباب"، هذه درجة.
وَلَوْ اجْتَمعوا له"، هذه أُخرى.
"وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ"، وهذه الثالثة.

ففيها تصوير للضعف المُزري، والتدرّج في تصويره بما يثير في النفس السخرية اللاذعة والإحتقار المهيب.

٣ـ يُعَبَّر عن حالة تخلي الأولياء عن تابعيهم أمام هول القيامة بصورتين، كالسابقتين. في إحداهما، يقال: "لا لَقَدْ تَناكَرَ الأصْفياءُ وتَخَلّى المَتْبوعونَ عن التابِعينَ حينما شاهدوا الهَوْل يَوْمَ الدِّين".

وفي ثانيتهما، يقال: وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾[2]: ففي هذا الاستعراض يتجسم للخيال مشهدان:

الضعفاء الذين كانوا ذيولاً للأقوياء، وهم ما يزالون في ضعفهم يلجأون إلى الذين استكبروا في الدنيا، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف، ويعتبون عليهم إغواءهم في

[1] سورة الحج : الآية : ٧٣
[2] سورة إبراهيم : الآية : ٢١

الحياة، متمشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة، وضعفهم المعروف. والذين استكبروا، وقد ذلّت كبرياؤهم وواجهوا مصيرهم، وهم لا يملكون لذات أنفسهم خلاصاً، فضلاً عن تابعيهم، فما يزيدون على أن يقولوا لهم: **"لَوْ هدانا الله لَهَدَيْناكُمْ"**.

٤ـ يُعَبَّر عن بطلان أعمال الكافرين بأنّها: "لا وَزْنَ لَها ولا تَنْفَعْ". كما يعبر عن ضلالتهم الدائمة، بأنّهم: "لا مَخْرَجَ لهم منها ولا هاديَ لهم فيه". ولكن في هذا التعبير ركود وسكون لا تَنْتَعش النفس به أبداً. وأين هو من التعبير القرآني في كلا الموردين (بطلان أعمالهم، وإحاطه الضلالة بهم) الّذي تحيا فيه النفس وتتحرك، وينتعش فيه الحسّ والخيال: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾[1].

ويقول: أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾[2] ففي التعبير الثاني في كلا الموردين صور متينة ساحرة فيها روح القصة، والخيال العميق. وأين للريشة في ترسيم هذه لو أريد تصويرها بالألوان، وإلى أين للعدسة لو أريد تصويرها بالحركات.

[1] سورة النور : الآية : ٣٩
[2] سورة النور : الآية : ٤٠

بل اين هي الريشة، وأين هي العدسة، الّتي تستطيع أن تبرز هذه الظلمات: (**فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا**)؟. أو تصوّر الظمآن يسير وراء السراب: (**حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**)، ووجد مفاجأة عجيبةً لم تكد تخطر له على بال، وجد الله عنده، وفي سرعة خاطفة تناوله، فوفّاه حسابه.

٥ـ وَمِنْ هذا الوادي تصوير معنى الضلال بعد الهدى. وضياع الجهد معه سدى، تلك الصور المتتابعة الّتي يجيش بها الحسّ والخيال، وتحيى بها النفس، يقول سبحانه:

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾[1]

[1] سورة البقرة : الآيات : ١٦ – ٢٠

إنّ هنا مشهداً من الصور المتتابعة في شرائط متحركة: هؤلاء هم قد أوقدوا النار فأضاءت، وفَجأة يذهب الله بنورهم ويُخَيِّم حولهم الظلام. أو ها هي ذي العاصفة صَيّبٌ من السماءِ فيه ظلمات ورعد وبرق، وهؤلاء هم مذعورون يتوقعون الصاعقة، ويخافون الموت، فيجعلون أصابعهم في آذانهم، وما تغني الأصابع في الآذان، ولكنها حركة الغريزة في هذا الأوان. وها هو ذا البرق يخطف الأبصار ولكنه ينير الطريق لحظة، فهم يخطون على ضوئه خطوة، وها هوذا ينقطع فيظلّون واقفين لا يدرون كيف يَخْطون.

لون آخر من التصوير الفني

هذه نماذج من التصوير الفني في القرآن الكريم وهناك لون آخر من التصوير يضفي على المعاني الذهنية والحالات المعنوية صوراً حسيّة. مثلاً:

١ـ الصبح مشهدٌ مألوف متكرر، ولكنه في تعبير القرآن حيٌّ لم تشهده من قبل عينان، وأنَه وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾[1].

٢ـ والليل آن من الزمان معهود، ولكنه في تعبير القرآن، حي جديد، وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾[2] وهو يطلب النهار في سباق جبّار يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا[3]

٣ـ والظلّ ظاهرة تُشهد وتُعرف، ولكنه في تعبير القرآن نَفْسٌ تَحُسُّ وتَتَصَرّف، وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٖ ﴿٤٤﴾[4]

٤ـ والجدار بُنْيَةٌ جامدة كالجلمود، ولكنه في تعبير القرآن يحسّ ويريد: فَوَجَدَا فِيهَا

[1] سورة التكوير : الآية : ١٨
[2] سورة الفجر : الآية : ٤
[3] سورة الأعراف : ٥٤
[4] سورة الواقعة : الآية : ٤٣ ـ٤٤

جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ[1]

٥- والطَّير أبنية حية، ولكنها مألوفة لا تلفت الإنسان، أمّا في تعبير القرآن فمشهد رائعٌ، يثير الجَنان: أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾[2]

٦- والأرض والسماءُ والشَّمْسُ والقَمَرُ، والجبال والوديان، والدُور العامرة، والآثار الداثرة، والنبات والأشجار والأفنان، أمواتٌ عند الناس، لكنها في القرآن أحياء، أو مشاهد تخاطب الأحياء، فليس هناك جامد ولا ميت بين الجوامد والأحياء.

٤- الأمثال

يشتمل القرآن الكريم على أكثر من خمسين مثلاً في مجال هداية الناس. وهذه الأمثال مع بسطاتها غزيرة المعاني، عالية المضامين. ونحن نذكر في المقام نموذجاً منها يتبلور فيه عمق المعنى بشكل آخر.

٥- الصراع بين الحق والباطل

يصوّر القرآن الكريم الصراع القائم بين الحق والباطل بصورة مثل بديع، يشتمل على نكات بعيدة الأغوار، عميقة الإشارات، في ألفاظ قليلة، وعبارات متناسقة.

[1] سورة الكهف : ٧٧
[2] سورة الملك : ١٩

الفصل الثاني

إعجاز القرآن الكريم ومظاهره في آيات الأمثال

اتفق أرباب الفصاحة والبلاغة على أن القرآن الكريم مُعجز في ألفاظه ، باهر في أسلوبه ، عظيمٌ في بلاغته ، حتى إن العرب على فصاحتهم وبلاغتهم ، عجزوا عن أن يأتوا بآية من مثله.

وكان من جوانب بلاغة القرآن الكريم ما جاء فيه من ضرب الأمثال ، والتي تمتاز بإبراز الحقائق والمبادئ في قالبٍ بديع قريب من الأذهان ، مما يؤهل النفس لتقبلها ، وتحويلها إلى سلوك بشري ينطلق من تلك المبادئ والحقائق ، ولاشك أن أثر هذه الأمثال واضح في سلوك البشرية ، فإنهم يتفاعلون ويتعاملون معها كالأوامر والنواهي التي لا يُمكن تجاوزها.

لأجل هذا كله أكثر الله من ضرب الأمثال في كتابه العزيز في مواضع كثيرة ، ونبّه على ذلك بقوله: ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] ، وهذه الأمثال المضروبة تشتمل على الخصال الحميدة ، وتُستلهم منها السنن الإلهية التي لا يتفطن لها إلا أولوا الأبصار ، قال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[2] ، فخصّ الله سبحانه وتعالى هذه الفئة بالفهم لأنها تناولت القرآن متدبّرةً له .

[1] سورة إبراهيم : ٢٥
[2] سورة العنكبوت : ٤٣

وضرب الأمثال في القرآن جاء لأغراض كثيرة ، فقد جاء أحيانا بهدف التذكير والوعظ والحث ، كما ضرب الله مثلاً للحث على العمل الصالح يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾[1] وجاء أيضاً للزجر والتنفير عن قبائح الأفعال كما في قوله تعالى : وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ[2] ، وأحياناً يأتي ضرب الأمثال القرآنية بغرض الاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل ، كالمثل الذي ضربه الله لبيان حقيقة الدنيا وزوالها في قوله : وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾[3]

وأصل المثل في اللغة هو الشبه والشبيه ، يقال: فلان مثل فلان ، أي يشبهه ، والمثل في الأدب :حكاية قول يُقصد منه تشبيه الواقعة بهذا القول ، فإذا قلنا مثلا: "أكرم من حاتم " فإننا نشبه هذا الشخص بحاتم الطائي من جهة الكرم ، وقد تأتي

[1] سورة الصف : ١٠ ، ١١
[2] سورة الحجرات : ١٢
[3] سورة الكهف : ٤٥

لفظة " المثل " ويقصد بها الحال والشأن العجيب ، وذلك كقوله تعالىأَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾[1] ، أي: ولما يأتكم حال وخبر الذين أتوا من قبلكم ، كذلك قوله تعالى : مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾[2] أي وصفها وحالها.

وقد اشتمل القرآن الكريم على كل ضروب الأمثال وأشكالها ، وتلك هي قمة الإبداع البلاغي ، ولذلك يقول الله تعالى : وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾[3]

[1] سورة البقرة : ٢١٤
[2] سورة الرعد : ٣٥
[3] سورة الزمر : ٢٧

الفصل الثالث

التفوق اللغوي للقرآن الكريم

لم تعذرعلى البشر الإتيان لمثل القرآن

إن القرآن يتفوق ببلاغته و أسلوبه وبيانه وتعبيره. أسلوب القرآن فوق مستوى أساليب بيان العربية. لأن القرآن جاء بأفصح الألفاظ و أصح المعاني وأحسن نظوم التأليف. ويستخدم القرآن طريقة التصوير في التعبير عن مختلف موضوعاته ولا بد للبيان القرآني "إيقاع" جذاب مؤثر ويدخل هذا الإيقاع أذن السامع فيؤثر به.

يقول الإمام أبو سليمان الخطابي " وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ومعنى به قائم و رباط لهما ناظم"[١]

"لقد جمع سيد قطب بين عدة مدارس في الأدب والنقد والبلاغة حيث وفق بين العناصر الخمسة مجتمعة: الألفاظ ، والمعاني ، والإيقاع ، والصور والظلال ، والأسلوب الذي ينسق بين ما سبقه "[٢].

فنفهم الآن أسرار البيان القرآني تكون في دقة اختيار ألفاظه وحكمة معاني ألفاظه وحسن نظمه و منتظم إيقاعه وجمال التصويرفيه. يمتاز التعبير القرآني بالتناسق العجيب بين الألفاظ والمعاني والنظم و الإيقاع والتصوير وبهذه الفضائل الخمس صار القرآن متفوقا و تعجز عنه قوى البشر و عجزوا عن معارضته بمثله ولذلك قال قائلهم :"إن له حلاوة و إن عليه لطلاوة"[٣] . وكانوا يقولون لجهلهم وحيرتهم "أساطير الأولين " مع علمهم أن صاحبه أمي ،وليس بحضرته من يملى أو يكتب .

عناصر البيان في القرآن

١. دقة اختيار الألفاظ

إن من دقة القرآن اختيار الكلمات فكل كلمة تحمل معنى خاص بها. لكل مقام مقال في التعبير القرآني. قال الإمام الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه الفذ "مفردات ألفاظ القرآن" حول دقة ألفاظ القرآن" فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب و زبدته و واسطته و كرائمه و عليها اعتماد الفقهاء و الحكماء في أحكامهم و حكمهم و إليها

[١] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي و عبدالقاهر الجرجاني ص - ٢٧٢

[٢] إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني (ص-١٢٧).

[٣] الشيخ عبد الله النسفي – تفسير النسفي – الجزء الأول – دار القلم – لبنان

مفزع حذاق الشعراء و البلغاء في نظمهم و نثرهم . و ما عداها و عدا الألفاظ المنفرعات عنها و المشنَفات منها هو بالإضافة إلى لبوب الحنظة".[1]

و من دقة القرآن في تخير و انتقاء ألفاظه أن معظم الألفاظ القرآنية كانت ثلاثية في جذورها و أصولها و من الجذر الثلاثي للفظ القرآني كانت تشتق الألفاظ الاشتقاقية في تصريفاتها و حالاتها. و الأفعال الرباعية المجردة نادرة في القرآن و الأسماء الرباعية المجردة نادرة أيضا و إيثار القرآن للفظ الثلاثي لخفته في النطق و حسن موقعه في السمع.[2]

٢. حكمة معاني الألفاظ

إن لكل لفظة معنى خاص ،نجد هذا المعنى في غاية الروعة والجمال وسمو البيان. ونجد الانسجام و الائتلاف بين الكلمات والمعاني. فإن كل كلمة تناسبها معناها. إذا أخذنا كلمة من الآية ثم نستعمل كلمة غيرها لاختل النظم والايقاع وائتلاف اللفظ مع المعنى.

و نرى في القرآن ألفاظ متقاربة في المعاني ويحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالحمد والشكر، وانفجر وانبجس ، والبخل والشح، وما إلى ذلك

الألفاظ والمعاني في التعبير القرآني معا لا انفصال فيهما فألفاظ القرآن توافق في المعاني ومعانيه توافق في الألفاظ بحيث لا تتغلب إحداهما على الأخرى. لا يمكن الجمع بينهما إلا في لغة القرآن الكريم. فمن خصائص العجائب البيانية في القرآن أنه يقتصد في الألفاظ ويفي بحق المعاني.

ومعاني ألفاظ القرآن متناسقة مع السياق الخاص. فالسياق الدقيق هو الذي يحدد اللفظ المناسب المفرد أو الجمع أو المعرفة أو النكرة أو التعبير في موضع بلفظ وفي موضع آخر بلفظ آخر. السياق القرآني الخاص هو التفوق البياني.

٣. حسن النظم

النظم في اللغة: وهناك عدة تعاريف لكلمة "النظم" في اللغة ، ومنها ما يأتي:

---

[1] . معجم مفردات الفاظ القرآن ص:٨ – للراغب الأصفهاني.
[2] . إعجاز ـ مصدر الرباني ص: ١٣

النظم : التأليف و ضم شيئ إلى شيئ آخر و نظمه : ألَفه و جمعه في سلك . و النظام : كل خيط ينظم به لؤلؤ و نحوه.[1] و النظم : التأليف ، و نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك و النظام. الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. وكل خيط ينظم به اللؤلؤ فهو نظام.[2]

أما صاحب المعجم الوسيط قوله: نظم الأشياء نظما،يعني ألفها و ضم بعضها على بعض و اللؤلؤ و نحوه. جعله في سلك و نحوه. فنفهم من المعاجم اللغوية النظم في اللغة هو "التأليف".

وفي الاصطلاح تأليف الكلمات و الجمل مرتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل: أو يقول آخر نفهم النظم هو التأليف و يراد به وضع كل كلمة في مكانها المناسب من العبارة وفقا لمعناها النحوي.

إن اللغة العربية هي أكمل اللغات بكثرة مفرداتها و تنظيم قواعدها اللغوية و الصرفية إن نظامها من الكلمات يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا تحت قوانين معينة و هذا ما ذهب علماء البلاغة العربية و قد قالوا هذا النظام مصطلح "النظم" أو ما يقوم مقام هذا اللفظ في المعنى كالتأليف و الصياغة يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني "ولذلك كان عندهم (يقصد النظم) نظيرا للنسج و التأليف و الصياغة و البناء و الوشي و التحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى تكون لوضع كل حيث وُضع علة تقتضي كونه هناك و حتى لو وضع في مكان غيره لم يصح"[3].

إنها لغة النظم الجميل و يرتبط بعضه ببعض كصورة الرسام فيضع كل شيئ موضعه. و يؤكد الجرجاني على اهتمام اللغة العربية في سياق النظم بتخير اللفظ ووضعه في موضع المناسب. لا بد للنظم من أمرين اثنين . فلا تتصور الألفاظ دون المعاني ولا العكس، بعض اللغويين يفرّقون بين التأليف و الترتيب و التنظيم.

---

[1] . القاموس المحيط: الفيروز آبادي ص:١١٦٢
[2] . لسان العرب: أبن منظور
[3] . دلائل الإعجاز ص: ٤٩

فالتأليف يستعمل فيما يؤلف على استقامة و على اعوجاج و التنظيم و الترتيب لا يستعملان الا فيما يؤلف على استقامة و مع ذلك فإن بين الترتيب و التنظيم فرقا . هو أن الترتيب: هو وضع الشيئ مع شكله و التنظيم: هو وضعه مع ما يظهر به و لهذا استعمل النظم في العقود و القلائد. لأن خرزها أنواع يوضع كل شيئ منها مع ما يظهر به لونه.[1]

نظر الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى البلاغة نظرة تخالف نظرة البلاغيين خاصة هؤلاء الذين قسموا البلاغة إلى علوم ثلاثة هي: المعاني و البيان و البديع . أما الجرجاني : "فقد كان ينظر إلى البلاغة على أنها علم واحد أساسه" (النظم) الذي تتفرع منه مسائل المعاني و من هذه المعاني تتكون الصور البيانية الرائعة من تشبيه و مجاز و كتابة و استعارة و تمثيل على حد الاستعارة. متضمنا قيما جمالية راجعة الى جمال المعاني قبل ان تكون زينة للألفاظ.[2]

النظم في القرآن

إن دراسة النظم في البلاغة العربية دراسة شريفة و إن دراسة النظم في القرآن الكريم أعظم شرفا إن هذه الدراسات تفتح إلى آفاق جديدة لفهم القرآن من ناحية و إدراك معانيه من ناحية أخرى . و تسير أغواره من ناحية ثالثة.

و نظم القرآن نظم حيوي بليغ و هذا النظم يجمع العناصر الأربعة : الألفاظ و معانيها و إيقاعها و صورها. "و النظم ـ كما يراه رائده عبد القاهر الجرجاني ـ هو توخي معاني النحو و أحكامه بين كلمات الجملة القرآنية وهذا يؤدي إلى حسن ترتيب الكلمات في الجملة بحيث تكون كل كلمة في مكانها المناسب نحويا و بلاغيا."[3]

---

[1] . الفروق اللغوية ـ أبو هلال العسكري ص: ١٤٨و١٤٩
[2] . النظم القرآني ص: ٣٣
[3] دلائل الإعجاز

إن توفر الأداة و الكلمة لا يكفيان لبناء الأسلوب بل لا بد من التأليف و التنسيق فيما بينهما فهما بشكلان المواد الخام للبناء الفني ، وعن طريق التأليف القائم على معاني النحو يتم التوفيق بين المعاني النفسية المراد التعبير عنها، و طريقة الأداء اللغوي.

إن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا و يكسب اللفظ شرحا و جمالا و حسن النظم أن توضع الألفاظ في مواضعها و تمكن في أماكنها ولا يستخدم فيها التقديم و التأخير و الحذف و الزيادة إلا لغرض بلاغي أي لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى و يضم كل لفظة منها إلى شكلها و تضاف إلى ما يلائمها.

أبو بكر الباقلاني فقد أورد النظم بمعنى التنسيق و الائتلاف و هذا ظاهر في قوله عن القرآن الكريم".[١]

و رأى أن نظم القرآن خارج عن نظام كلام العرب. "إن نظم القرآن على تصرف وجوهه خارج عن العهود من نظام جميع كلامهم و مباني للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به و يتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد".[٢]

و النظم القرآني لا يتفاوت ولا يتباين ولا يختلف على حسب اختلاف الأمور. فقذ أورد الباقلاني عن النظم القرآني "عجيب نظمه و بديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما ينصرف اليه من الوجوه التي ينصرف فيها من ذكر قصص و مواعظ و احتجاج و حكم و أحكام و إعذار و إنذار و وعد و وعيد و تبشير و تخويف و أوصاف و تعليم أخلاق كريمة و شيم رفيعة و سير مأثورة و غير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.[٣]

و القرآن عند محمد بن عبد الكريم الخطابي معجزة. فالإعجاز عنده بثلاثة أوجه. "لفظ حامل و معنى به قائم و رباط لهما ناظم"[٤]. و إذا أنعمنا النظر في القرآن و تدبرنا في آياته أدركنا غاية الشرف و قمة الفضيلة و أورد الخطابي ذلك قائلا:"و إذا

---

[١] . القرآن بديع النظم عجيب التأليف ـ الباقلاني ص: ٢٤
[٢] . المصدر السابق ص: ٢٤
[٣] . باقلاني ص: ٢٥
[٤] . ثلاث رسائل ص:٢٧

تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف و الفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظما أحسن تأليفا و أشد تلاؤما و تشاكلا من نظمه و أما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها و التَرقي إلى أعلى درجات الفضل من تفوقها و صفاتها".[١]

إن أسلوب القرآن يفوق كل الأساليب المعهودة و إن أسلوبه ليس كمثله شيئ من بين جميع أنواع الأساليب المعروفة. إن النظم القرآني يعلو كل نظم و يرقى فوق كل لغة في حروفه و كلماته و تراكيبه.

٤. منتظم إيقاع القرآن

وللبيان القرآني 'إيقاع موسيقي' جذاب مؤثر "إن التنغيم هو ارتفاع الصوت وانخفاضه في أثناء الكلام و يسمى أيضا موسيقي الكلام"[٢].

إن التنغيم جزء من النظام اللغوي. النغمة الصوتية أصل في اللغة المنطوقة واللغة المنطوقة أصل اللغة. نمكن أن تغير الجملة العربية بالتنغيم من خبر إلى استفهام أو توكيد أو تعجب أو دون تغيير في شكل الكلمات المكونة.

٥ جمال التصوير القرآني

للبيان القرآني يستخدم طريقة 'التصوير' في التعبير عن مختلف موضوعاته والقارئ يرى أمام عينيه مشهدا تلفزيونيا معروضا على شاشة خياله. هذا التصوير جميل حيوي مؤثر.

"معنى التصوير هو أن القرآن يعرض الموضوع بطريقة تصويرية متخيلة فعندما يقرأ القارئ الآية ترتسم في خياله صورة فنية متجسمة متخيلة للموضوع الذي تتحدث عنه الآية"[١] .

---

[١] . ثلاث رسائل ص: ٢٧

[٢] د. عبدالحميد مصطفى السيد - في النحو العربي ج/١ ص/١٦٩.

استخدم القرآن طريقة التصوير في نقل المعاني الذهنية إلى معان حسية و عندما يقرآ القارئ آية من الآيات يرتسم المعنى في خياله و يصبح صورة شاخصة حية متحركة متناسقة للمعنى. يقول سيد قطب "التصوير في القرآن تصوير حي منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة ، و لا خطوط جامدة ، تصوير تقاس فيه الأبعاد و المسافات بالمشاعر ةوالوجدنات ، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة".[٢]

صور القرآن الكريم الحوادث الواقعية و مشاهد الطبيعة مشاهد العذاب و النعيم يوم القيامة في صورة مادية محسوسة لترسيخ المعاني في أعماق النفس.

الصورة البيانية توجز التعبير في كلمات قليلة غزيرة الدلالة عميقة الإيماء يقول سيد قطب في الظلال: "إنها حشود من الصور و الظلال و المشاعر و الأحوال تنبثق من هذه الكلمات القلائل و تتراءى الحس و الشعور و تظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب"[٣].

الصورة البيانية ترسم المعاني بصورة حسية مؤثرة في النفوس وفي آيات القرآن تجد الصورة البيانية مرسومة بتناسق فني تخاطب الحس و الوجدان و التعبير القرآني يرتقي بالصدق الفني في رسم الصور و المشاهد القرآنية و عرضها و إخراجها حتى يفوق كل أساليب العرض الفني البشرية و يقول سيد قطب "الصدق الفني إبداع في العرض و جمال في التنسيق و قوة في الأداء".[٤]

---

[١] إعجاز القرآن البياني و دلائل مصدره الرباني ص ١٣٨
[٢] .التصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب ص : ٣٥
[٣] . في ظلال القرآن ص: ٣٤١٦ جلد : ٦
[٤] . التصوير.

الفصل الرابع

صفاء اللغة العربية وصفاء القرآن الكريم

صفاء اللغة العربية

وصفت اللغة العربية قديمًا وحديثًا بأنها "لغة شعرية"، والذين يصفونها بهذه الصفة يقصدون أنها لغة يكثر فيها الشعر والشعراء، وأنها لغة مقبولة في السمع يستريح إليها السامع، كما يستريح إلى النظم المرتل والكلام الموزون، كما يقصدون بها أنها لغة يتلاقى فيها تعبير الحقيقة، وتعبير المجاز على نحو لا يعرف له نظير في سائر اللغات. وحين تحدث الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" عن انفراد اللغة العربية بالعروض (علم أوزان الشعر)، عقب العقاد على كلامه بأنه "كلام علم وحق، لا يبعث إليه مجرد الفخر بالعصبية؛ لأن الفخر كثيرًا ما يزيد على تقدير الواقع ذهابًا مع العاطفة.. أما الحقيقة هنا فهي أكبر من قول القائلين: إن اللغة العربية لغة شعرية لانفرادها بفن العروض المحكم أو جمال وقعها في الأسماع، فإنها لغة شاعرة ولا يكفي أن يقال عنها: إنها لغة شعر، أو لغة شعرية، وجملة الفرق بين الوصفين أن اللغة الشاعرة تصنع مادة الشعر وتماثله في قوامه وبنيانه؛ إذ كان قوامها الوزن والحركة، وليس لفن العروض ولا للفن الموسيقي كله قوام غيرها"[1] .

كانت هذه الفكرة الناصعة هي الأساس الذي بنى عليه عباس العقاد كتابه القيم "اللغة الشاعرة"، وفيه عاد يبحث ويحلل وينقب عن جذور هذه الشاعرية في بنية وتركيب وخصائص اللغة العربية، التي تعود في جذورها إلى قرون طوال و تاريخ قديم. البعض يرده إلى مائتي عام قبل الإسلام، والبعض الآخر إلى أبعد من ذلك، قرابة القرون الأربعة أو الخمسة .

[1] البيان والتبيين

اللغة العربية، أشهر اللغات السامية، تصعد إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون، كما يقول الدكتور إبراهيم بيومي مدكور، رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة الراحل. اشتملت على لهجات مختلفة أخصها لهجة قريش التي امتازت بصفائها ورقتها وبسطت نفوذها على اللهجات الأخرى، وكانت عاملًا من عوامل "الوحدة اللغوية" للعرب. وأعانها على ذلك رحلات القرشيين التجارية شتاء وصيفاً، وما كان يقام على مقربة منهم من كل عام من مهرجانات أدبية كسوق عكاظ، والكعبة التي كان يحج إليها العرب في الجاهلية سنوياً، ويسعون إليها من كل فج سحيق .

وكانت العربية محصورة في الجزيرة قبل الإسلام، ثم أخذت تنتشر معه شرقاً وغرباً، شمالا وجنوبا، من أواسط جبال الهند إلى جبل طارق، ومن البحر الأسود إلى بحر العرب، ودخلت في صراع مع ثقافات ولغات أخرى كالفارسية والهندية، والقبطية والبربرية. وخرجت من هذا الصراع "ظافرة". أخذت من هذه الثقافات واللغات ما أخذت، أثرت فيها وتأثرت بها دون منازع، ولكنها سادت عليها، وحلت محل بعضها بصفة نهائية .

إذن، وكما يؤكد المؤرخ الراحل حسين مؤنس في كتابه «الحضارة»، فقد خرجت اللغة العربية إلى الدنيا -خارج الجزيرة- لغة كاملة مكتملة النمو بنحوها وصرفها وبلاغتها وكتابتها أيضا، فغلبت على غيرها من اللغات؛ لأنها لغة القرآن أولا، ثم بفضائلها الذاتية ثانياً، فأصبحت لغة الناس في العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس. وقرب نهاية العصر الأموي، تقريبا، كادت اللغة العربية تقضي تماماً على كل اللغات التي كان الناس يتكلمونها في إيران، ولكن الفتن التي قامت بين العرب في إيران، ثم قيام الدولة العباسية على أكتاف عرب خراسان، وانتقال معظم هؤلاء إلى العراق جعل أعداد العرب الباقين في إيران قليلة لا تكفي لإحداث التعريب الشامل.

صفاء لغة القرآن الكريم

كان العرب قبل نزول القرآن يتكلمون العربية فصيحة، سليمة من اللحن والاختلال، وكان يتكلم بها من عاش بينهم واستقر في ربوعهم بالسليقة والوراثة والعادة المستمرة، ونزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان فيه ما في هذه اللغة من الظواهر اللغوية التي بلغ بها نهاية البلاغة، قال تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾[1]

فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كلَّ لسان غير لسان العرب.

وقال تعالى: نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾[2] ، أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بينا واضحا ظاهرا، قاطعا للعذر، مقيما للحجة، دليلا إلى المحجة. وقال تعالى: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾[3] أي: "إنا أنزلنا هذا الكتاب المبين، قرآنًا عربيًّا على العرب، لأن لسانهم وكلامهم عربي، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه".

---

[1] سورة النحل : ١٠٣
[2] سورة الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥
[3] سورة يوسف : ٢

وقال أيضًا: كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾[1].

أي: كتاب بيّنت آياته بيانا شافيا، وأوضحت معانيه، وأحكمت أحكامه، وقد أنزلناه بلغة العرب، ليسهل فهمه، فمعانيه مفصّلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، وإنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون الذين يعلمون أن القرآن منزل من عند الله، ويعلمون معانيه، لنزوله بلغتهم.

ولقد أثر القرآن الكريم في العرب حينما سمعوه، لكون العربية سجية من سجاياهم، فكلما كان الإنسان ذا بصيرة وعلم في اللغة العربية كان أكثر فهما للقرآن الكريم، ومن كانت بضاعته في اللغة العربية مزجاة فليس له من فهم القرآن إلا حفظ الروايات ونقل الأقوال عن أصحابها.

واعتبر العلماء رحمهم الله أن خدمة اللغة العربية والتأليف فيها خدمة للقرآن الكريم، والدفاع عنها تعد دفاعا عن حمى القرآن الكريم. والتفاوت في فهم القرآن الكريم واضح منذ عهد نزول القرآن فيمن عاصر نزوله إلى وقتنا الحاضر، فكل من كان بلغة العرب أعرف كانت معرفته بمعاني نصوص الكتاب والسنة أكثر، وفهمه لمدولاتها أرسخ وأتقن.

ولقد كان العرب في عهد نزول القرآن على جانب كبير من الإحاطة بلغتهم، ومعرفة أساليبها وإدراك حقائقها، فكانوا بذلك أقدر الناس على فهم القرآن وإدراك معانيه واستيعاب مراميه، ومن جاء بعدهم كان أقل درجة أو درجات لبعدهم عن صفاء اللغة العربية، وذلك لما عم الإسلام الأرض واختلط العرب بالعجم وتولد منهم الجيل الذي أصبح يبتعد رويدا رويدا كلما مر عليه الزمن، عن اللغة الأم وصفائها.

[1] سورة فصلت : ٣

فقد كان الصحابة أعلى قدرا في فهم القرآن وإدراك حقائقه من التابعين، والتابعون كانوا أعلى قدرا ممن بعدهم، وهكذا كلما كان البعد عن صفاء اللغة، وكان البعد أشد في إدراك معاني القرآن وفهم مقاصده وأحكامه وأسراره.

وتكمن أهمية اللغة العربية في فهم القرآن وتفسيره في الأمور الآتية :

أولا : أن من أسباب الخطأ في التفسير، ومن عوامل الانحراف في فهم الآيات القرآنية، ومن دواعي ظهور المفهومات الزائغة للنصوص الشرعية، الضعف في اللسان العربي قراءة، وكتابة، وفهما، وتطبيقا، والجهل بقواعده من التصريف، والنحو، والاشتقاق، والإعراب، والمعاني، والبيان، وغير ذلك من مصطلحات اللغة وأصولها، ثم التعامل مع هذه النصوص من خلال هذه العجمة. وطرأ هذا الضعف اللساني والجهل اللغوي؛ بسبب شيوع العجمة وانتشارها، وذيوع اللحن وظهوره، ودخول الأمم العجمية في الإسلام، وقلة العلم بأصول اللغة ومدلولاتها، وندرة الاهتمام بالحفاظ عليها.

ثانيا: تعد معرفة اللغة العربية من أهم الأدوات لفهم القرآن الكريم وتفسيره، إذ القرآن نزل باللسان العربي، فلا شك أنه لا يصح فهمه وتفسيره إلا عن طريق ذات اللسان الذي نزل به الروح الأمين على قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد أردك العلماء أهمية اللغة العربية في فهم القرآن وتفسيره، وحذروا من تفسير كتاب الله من غير علم بالعربية.

قال مجاهد بن جبر: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب"[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين

[1] البرهان في علوم القرآن – ص : ٣٩٥

إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتبار التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، في جميع أمورهم... واللسان تقارنه أمور أخرى: من العلوم والأخلاق، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله وفيما يكرهه، فلهذا أيضا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين الأولين، في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة"[1].

ويقول إبراهيم بن موسى الشاطبي: [2]"القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة، لأن الله تعالى يقول: إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ "[3].

وقال: بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾[4].

وقال: لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٣﴾.[5]

وقال: وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ[6] إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا

---

[1] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/٤٤٩-٤٥٠)
[2] إبراهيم بن موسى الشاطبي - الموافقات - ج٢ – ص : ١٠٢٩ – داربن عفان – ١٩٩٧
[3] سورة يوسف -٢
[4] سورة الشعراء : ١٩٥
[5] سورة النحل : ١٠٣
[6] سورة فصلت : ٤٤

بلسان العجم، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة.

ثالثا: اللغة العربية المطلوب تعلمها لفهم القرآن الكريم وتفسيره: معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، قال ابن عاشور: "أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم"[١].

يقول إبراهيم بن موسى الشاطبي :"ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين"[٢].

ويقول إبراهيم بن موسى الشاطبي أيضا: "ولا أعني بذلك النحو وحده، ولا التصريف وحده، ولا اللغة، ولا علم المعاني، ولا غير ذلك من أنواع العلوم المتعلقة باللسان، بل المراد جملة علم اللسان ألفاظ أو معاني كيف تصورت، ما عدا الغريب، والتصريف المسمى بالفعل، وما يتعلق بالشعر من حيث هو الشعر كالعروض والقافية، فإن هذا غير مفتقر إليه هنا"[٣].

فلا بد للمفسر من معرفة مصادر وجوانب أخرى يعتمد عليها في تفسيره غير اللغة وحدها، كالسنة النبوية، وأسباب النزول، وقصص الآي، والسياق القرآني، والقرائن التي حفت بالخطاب حال التنزيل، وغيرها من المصادر التي لا يمكن أخذها عن طريق اللغة، ولذلك خُطِّئَ قول من أهمل هذه المصادر والجوانب، واعتمد على مجرد اللغة فحسب، إذ قد يكون المدلول اللغوي غير مراد في الآية.

---

[١] محمد القاهر بن عاشور التونسي - التحرير والتنوير - ج١ - ص: ١٨- الدار التونسية للنشر -تونس - ١٩٨٤
[٢] إبراهيم بن موسى الشاطبي – الموافقات – ج١– ص: ١٨
[٣] التحرير والتنوير (١٨/١)

قال أحمد بن أبي بكر القرطبي: "من لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط".[1]

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: "وينبغي أن يتفطن ههنا لأمر لا بد منه وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ويكون الكلام به له معنى ما فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن...فتدبر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه ...فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصوله"[2].

فالرواية هي الأصل، وقواعد اللغة العربية تبع لها لا العكس.

وبهذا يتبين لنا أهمية اللغة العربية للقرآن الكريم، وأهميتها في فهمه وتفسيره، وأنها لا غنى عنها لمريد التفسير، مع الحرص على عدم الاعتماد على مجرد اللغة في فهم كلام الله تعالى.

[1] أحمد بن أبي بكر القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - دار الرسالة المحمدية
[2] ابن القيم الجوزية - بدائع الفوائد – ج٣ - ص: ٢٧،٢٨ - ٢٠١٠ - دار الكتب العربي بيروت – لبنان

نتائج البحث

- كلمة " القرآن" لا ينحصر معناها في أيّ حدذ من الحدود الكلامية ، على الرغم من التعاريف والأوصاف الكثيرة من مشاهير العلماء في اللغة .
- نظر العلماء إلى القرآن الكريم من جهتين : الأولى عقدية ، والثانية مصدرا للشريع ، بل فوق ذلك كلّه القرآن الكريم حافظ لأسمى كلام العرب وأرقى تراكيبهم .
- ترتبط الألفاظ القرآنية في المثل بالأمثال النبوية لغويا ، أكثر من ارتباطها شرعيا وعقديا
- الحيوانات والحشرات والنباتات التي استعملت في القرآن للتمثيل هي رمزية، تخاطب العقول ، أكثرتفاسير الزمخشري للآيات القرآنية مثيرة للنشاط العقلي للإنسان ، ولو انتقده العلماء في اعتزاله .
- وجدت ألفاظ الأمثال القرآنية بكثرة في جسمها ومعناها في الشعر العربي ،من حيث إنها تزيده رونقا وبهاء. و أنها تخاطب الحواس الإنسانية.
- صارت الخطابة آلة قوية للتأثير في قلوب السامعين بمساعدة الألفاظ القرآنية، إنها صارت مصقولة ومرآة صافية تنعكس فيها الحقائق.
- صفاء القرآن اللغوي قد أدى في إلى نشر اللغة العربية بأنحاء العالم ، إن الكتاب المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلّم ، يكون أساسا متينا للعربية إلى آخر الدهر.

- تأثير الألفاظ القرآنية في الشعر العربي ، والخطابة ، واضح وجلي من حيث أنّ الكتاب والشعراء قد بنوا أسلوبا خاصا مزيجا من الألفاظ القرآنية وغير القرآنية.
- والزمخشري ولو كان معتزليا تعرض لنقد العلماء والمفسرين ، انه اتخذ أسلوبا خاصا في التفسير القرآني ، واتبع أسلوبه هذا من بعده العلماء والمفسرون في كتاباتهم القرآنية وغير القرآنية.
- الخطب المنسوبة إلى علي كرّم الله وجهه والمجموعة في كتاب" نهج البلاغة"، لها تأثير قويّ بالآيات القرآنية، في سذاجة ألفاظها وغزارة معانيها.
- يرى الباحث أنّ للقرآن طريقة موحّدة يتخذها في أداء جميع الأغراض على السواء حتى أغراض البرهنة والجدل ، وتلك طريقة صوغ المعاني العالية في قالب التجيسم والتمثيل
- ألفاظ القرآن هي لب كلام العرب، وزبدته وواسطته ، وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء الحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها يسرع الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم.

الخاتمة

إنّ هذه الأطروحة محاولة متواضعة للتعمق في ألفاظ القرآن وأمثاله ،والدراسة في المواد المختلفة بالقرآن الكريم لا تنتهي إلا بانتهاء الإنسانية،لأن فيه علوما ومعارف شتى تشير إلى عظمة الله سبحانه وتعالى، والأمثال في القرآن الكريم جانب مهم من جوانبها اللغوية والاعتقادية، وهي وسيلة من الله تعالى لتقريب الأشياء إلى أفهام الناس بصورة واضحة جلية ، والأمثال في القرآن الكريم تسير بالإنسان إلى سبيل الهدى والحق، كأنما أخذ كشافا في يده ليرى الأشياء واضحة بنوره وأشعته، والباحث في عمله هذا قد طالع أمهات كتب التفسير للمفسرين العظماء مثل ابن كثير وسيد قطب و الزمخشري وغيرهم ، وقد حاول كذلك للمقابلات الشخصية مع العلماء الكبار والأساتذة المشهورين مباشرا وغير مباشر ، والخطبات التي وردت في يوتوب قد ساعدت الباحث على توسيع آفاقه العلمية ، ولا يدعي الباحث أن هذه الأطروحة جامعة ومانعة ، بل توجد فيها فلتات في البيان والتعليق والتفسير ، ويرتجى من المحسنين الكرام أن يشيروا إليها بروح الإخلاص والتقوى ، والله هو الذي يجزي من يشاء بغير حساب.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

١. أ بو جعفر الطحاوي : العقيدة الطحاوية – دار المعرفة – بيروت.

٢. إبراهيم بن موسى الشاطبي - الموافقات - ج٢ – دار ابن عفان

٣. ابن أبي الإصبع العدواني ، درر الأمثال ، دار الرسالة المحمدية .

٤. ابن القيم الجوزية ، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، مكتبة العلم ، جدة، ط: ١ (١٩٩٦ م)

٥. ابن القيم الجوزية – الوابل الصيب - دار الشروق .

٦. ابن القيم الجوزية - بدائع الفوائد – ج٣ - ص: ٢٧،٢٨ - ٢٠١٠ – دار الكتب العربي ، بيروت

٧. ابن القيم الجوزية ، الأمثال في القرآن الكريم ، دار المعرفة ، بيروت (١٩٨١)

٨. ابن جرير الطبري : تفسير الطبري – دار المعرفة - ط:٤ (١٩٨٧م)

٩. أبو الحسن علي بن محمد الماوردي ، أمثال القرآن ، مكتبة التوبة ، الرياض

١٠. أبو الفضل الميداني ، مجمع الأمثال، دار الشروق ،

١١. أبو عبد محمد بن إسماعيل البخاري ، الجامع الصحيح ، دار الفكر ،

١٢. أبو علي محمد بن أحمد الجنيد الإسكافي، أمثال القرآن، الشروق،(٢٠٠١م)

١٣. أبو مظفر يحي بن محمد بن هبيرة - الإفصاح عن معاني الصحاح

١٤. أبو هلال العسكري ،الفروق اللغوية ، دارالعلم والثقافة ، ط:٤ ، ٢٠١٤م

١٥. أبوبكر محمد الطيب الباقلاني ،إعجاز القرآن ، دار المعارف ، مصر – ط:٥(١٩٩٧م)

١٦. أبوعبد الله محمد بن علي بن الحسن ، الأمثال من الكتاب والسنة، دار أسامة ، بيروت ، (٢٠١٠م)

١٧. أبوعثمان عمروبن بحر الجاحظ - البيان والتبيين - المكتبة الشرقية – اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، (٢٠٠٥م).

١٨. أحمد بن أبي بكر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الرسالة المحمدية

١٩. أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي –ط :٢٤ دار نهضة مصرللطبع والنشر – مصر – (٢٠٠٠م)

٢٠. الأصمعي – الأجناس في اللغة – منشورات الهيئة العامة السورية الإعجاز– مكتبة الخانجي ، ط: ٥ - ٢٠٠٤

٢١. الإمام أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني –دلائل الإعجاز – مكتبة الخانجي – ط:٥ (٢٠٠٤م)

٢٢. الإمام عبد الحميد الفراهي ، مفردات القرآن ، دار الغرب الإسلامي – ط:١ (٢٠٠٢م)

٢٣. الإمام علي كرّم الله وجهه ، نهج البلاغة ، شرح الإمام محمد عبده ، الأول, دار الفكر، الكتاب اللبناني (٢٠٠٨م)

٢٤. بدر الدين الزركشي :البرهان في علوم القرآن ، ط ١ ، دار المعارف بيروت ، الجزء الأول

٢٥. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي و عبدالقاهر الجرجاني

٢٦. جريدة "الراية" ، التاريخ : ٠١/٣ / ٢٠١٥

٢٧. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – الإتقان في علوم القرآن-

٢٨. الحافظ ابن كثير ، تفسير ابن كثير ، ط: ٢ ، دار ابن حزم ، ٢٠١٥

٢٩. حافظ بك إبراهيم – ديوان حافظ إبراهيم – ط ٣ – المطبعة الأميرية الحديث ، القاهرة (١٩٨٨)

٣٠. الحسين بن الفضل ، الأمثال الكامنة في القرآن الكريم ، مكتبة التوبة
٣١. حنّا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي ،دار الجيل بيروت
٣٢. د. عبدالحميد مصطفى السيد - في النحو العربي ج/١.
٣٣. د/ عشتار داود محمد ، الإشارة الجمالية في المثل القرآني .
٣٤. د/ مصطفى الصاوي الجويني ، منهج الزمخشري في تفسير القرآن
٣٥. د/محمد بن عبد الله المنصور ، الأمثال في القرآن الكريم ، دار الكتب
٣٦. د/محمود النقراشي السيد علي ، مناهج المفسرين ، مكتبة النهضة القصيم دار الكتب العربي بيروت – لبنان
٣٧. الدكتور الشريف منصور بن عون العبدلي ، الأمثال في القرآن الكريم ،
٣٨. الراغب الإصفهاني - المفردات في غريب القرآن ، دار القلم ، دمشق
٣٩. الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه
٤٠. الزمخشري ، المستقصى في الأمثال ، دار الفكر ، بيروت (٢٠٠٨) الزهراء للكتب المصورة
٤١. سميح عاطف الزين ، الأمثال والمثل والتمثيل والمثلات في القرآن
٤٢. سميح عاطف الزين ، معجم الأمثال في القرآن الكريم ، دار الكتاب
٤٣. سيد قطب – التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق المصري ،
٤٤. سيد قطب إبراهيم ، في ظلال القرآن ، دارالشروق ، مصر
٤٥. شرح ديوان عنترة بن شداد - أمين سعيد – الطبعة الغربية – مصر الشروق المصري (١٨٨٦)
٤٦. شلتاغ عبود شراد – أثر القرآن في الشعر العربي الحديث – دار الشروق
٤٧. الشيخ جعفر السبحاني : الأمثال في القرآن الكريم ، جعفر السبحاني ،دار الكتب
٤٨. الشيخ عبد الله النسفي – تفسير النسفي – الجزء الأول – دار القلم – لبنان

٤٩. الشيخ علي محمد عبد العال الطهطاوي ، عون الجنان في شرح الأمثال
٥٠. الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ،مناهل العرفان في علوم القرآن الجزء
٥١. الشيخ محمد علي الصابوني : التبيان في علوم القرآن ، مكتبة إشاعت
٥٢. صابر حسن محمد أبو سليمان ، غاية البيان في أمثال القرآن
٥٣. صلا ح عبد الفتاح الخالدي ، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره
٥٤. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع
٥٥. عبد الرحمن حسين السلمي النيسابوري ، أمثال القرآن ، دار الفكر.
٥٦. عبد الله محمد الشيرازي البيضاوي – أنوار التنزيل وأسرار التأويل
٥٧. العلامة محمد باقرالمجلسي - بحار الأنوار : ج ١ ، ١٩٨٣- مكتبة
٥٨. العلامة المجلسي – بحر الأنوار – ج ٢ العلم ، جدة ، ط:١ ،(١٩٩٦ م)
٥٩. القرآن الكريم
٦٠. مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر
٦١. مجلة نور الإسلام/ العددان ١٣ و١٤ لسنة ١٩٩١م
٦٢. محمد القاهر بن عاشور التونسي - التحرير والتنوير - ج١ - الدار
٦٣. محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ، غذاء الألباب في شرح منظومة
٦٤. محمد بن صالح العثيمين – شرح الأربعين النووية
٦٥. محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، فتح القدير في التفسير ، دار النشر
٦٦. محمد بن يعقوب الكليني – الكافي – ج٢
٦٧. محمد عبد الرحيم، الأمثال في القرآن الكريم ، دار الفكر، بيروت
٦٨. محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم – دار الكتب - مصر – ١٩٨٧
٦٩. محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
٧٠. محمد قطب ، دراسات قرآنية ، دار الشروق ، ط: ٨ ، (٢٠٠٤م)
٧١. محمد متولي الشعراوي ،من فيض الرحمن في معجزة القرآن ، الكتاب
٧٢. محمد محمد أبو شهبة ، المدخل لدراسة القرآن الكريم ، دار اللواء للنشر

٧٣. محي الدين ابن عربي - فصوص الحكم
٧٤. مسلم بن الحجاج القشيري ، صحيح مسلم بشرح النووي المسمى بتفسير البيضاوي – دار المعرفة – بيروت ، لبنان
٧٥. مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية- ط٨ – ج١ دارالمعرفة - ١٩٨٧
٧٦. معروف الرصافي – ديوان الشاعر الرصافي – ط ٣ – ١٩٤٩ –دار
٧٧. مناع القطان : مباحث في علوم القرآن ، مكتبت اشاعت اسلام ، دهلي
٧٨- الشيرازي الفيروز آبادي، القاموس المحيط ، ١٤١٠- ط:١ دار الأرقم
٧٩ - عبد الرحمن بن ناصر السعدي – تيسير الكريم الرحمن

80 . The Applied Examples in the Noble Qur'an - Ibnul Qayyim al Jawziyya – ILMA Publications.
81. WWW.Q8Yat.com
82. http: // www.alwarraq.com